دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١

أسطورة السور الطائف

.. حكايات ..

الساهي إبراهيم

أسطورة السور الطائف[1]

حكايات

الساهي إبراهيم

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني
kesasandhekayatpub.blogspot.com

[1] الحكايات المسرحية في الحارة الشرقية (٢)

العنوان: أسطورة السور الطائف

النوع الأدبي: حكايات

المؤلف: الساهي ابراهيم

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني**2021**

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

بداية الحكايات

ظل ولأمد يطوف هذا السور الحجري الضخم بكامل تلك البلدة السعيدة ويحتضن كنوز أرضها ويهب أهلها المجد والمنعة في حاضر كل ماض في سحيق الأزمنة، وكان البدء أن جعل الله الكثير من النعم التي تفيض من باطن الأرض وسمائها لتتخلق عليها طبيعتها البكر كهبات الهية ظلت وما زالت تتفجر في كل مكان لتهنأ هذه الأرض ومن عليها ليعيش كل معاني الرغد والسعادة، وتتدفق فيهم ومنهم أقصى الأحاسيس بالمتعة بفتنة طبيعتها المتجلية عن قدرة عظمة الخالق لتتراءى في أحداقهم المستسلمة وهم يستمعون لصفق الابتهاج بحرية الحياة على جوانب الشلالات ومساقطها، وفي تناغم مع ترانيم زحف الجداول الراقصة وهمس الينابيع الثملة من الدفء وبالصفاء طربا بزغاريد كل طير وأهازيج كل كائن يرقص فرحا على أرضها وسمائها في الأشجار والأودية والجبال، والجميع ذائب كجزء في سمفونية ناطقة بأناشيده تمجد رب هذا الكون وهو صاحب كل الإبداع وتصدح له بالثناء على هذا العطاء الأبدي الذي أيقنوا بأنه لهم وحدهم، هم وفقط.

كانت حياة بلا أي منغصات. جميع بقاع أرضها سندسية جامحة الخصوبة تمتزج فوق الأرض بين الضوء والظلال عجائب الألوان وتفصل بينها جزر صغيرة بيضاوية أو مستطيلة من رمال فضية مبهرة الصفاء أو حصباء ذهبية تتناثر في جمال على امتداد أطراف بعض الأودية العريضة وهي تزحف بأحلامها الأزلية

نحو فتوحات الصحاري المجاورة التي تحتل جوانبها الشرقية وتهدد محيطها، ولكنها وهي ضمن حدود المملكة الآمنة فهي تلوح من خلال الأبعاد بكل فخر كملكة ترتدي فستان عروس دائم، زاهي بالنفائس والنقوش وكأنها تنساب من القمم متدرجة ببهاء الألوان وبأحزمة عجيبة تشدها على سفوح الجبال الشاهقة، وتتراءى للناظر مساحات مضيئة وداكنة الألوان مما ارتدت، وقد حيك فوقها بغابات متماسكة الأشجار وأرضية من نسيج شديد الاخضرار، أما ما تجاوز هذا الفردوس وأمتد بعيدا عن الحدود شرقا وشمالا فصحراء عقيم محرقة وما يحضنها ويحفها جنوبا وغربا فمرتفعات جبال صخرية شديدة الارتفاع والانحدارات العسرة الاجتياز صعودا أو نزولا وأغلب هده الجوانب شبه قاحلة، وكأنها تحيط هذه الجنان كالسور الواقي وساتر إخفاء طبيعي هائل يعزلها عن سهول بحر القلزم الشديدة الانخفاض، فانزوت بين كل هذه التناقضات القاسية كجزيرة صغيرة سعيدة بمكانها المميز وبما تكنز من ثروات، وقد أحاطت بجوانبها من جهة الشرق والشمال منحدرات أودية جافة كأهداب مجعدة تنخفض من أطراف هذه السجادة السندسية لتلتحم بأخرى باهتة وشاسعة المساحة من الأراضي القاحلة التي تتنقل فوقها كثبان الرمال محمولة بالعواصف الهوجاء في أرجاء جزيرة العرب.

وهذه الأهداب أو الأشرطة التي تنسل من جوانب هذه الجنة الخضراء كأودية طويلة ملتوية حتى تتعرى تدرجا من كل أثر اكتست به من مكونات الحياة لتتحول لأودية مقفرة متعطشة لقطرة ماء وليس منه الكثير إلا في هذه الجنة

النادرة بين أصداف الجبال الشاهقة وتطفح في أوديتها وشعابها وغاباتها لتتم النعم على تلك الأرض وتكون كما أرادها الخالق أرضا طيبة التربة والخصوبة والماء والهواء.

وماتزال تنهمر عليها مياه الأمطار معظم الفصول وتنحدر من أعالي الجبال في سيول وشلالات وجداول رقراقه وتتفجر في كل الأنحاء عيونا وينابيعا عذبة في صفاء اللجين في بريقها الآسر للأنظار، كما تشاهد انعكاسات الضياء وتكسرها على قطرات الماء المتساقطة والمتطايرة فتحسب أن السماء والجبال تنثر من أعاليها اللؤلؤ والألماس وترى ألعاب الأشعة أيضا في ما تنثره غلائل السحب الضبابية الرقيقة وما تصنعه حبيبات الندى من بهيج الألوان في أقواس القزح وعلى أوراق الأشجار والثمار، وقد اعتادت هذا السكب صفحات الهضاب على السفوح والقطر في مكان كدموع أفراح دائمة تتجمع وتسيل متدفقة، في لمع الفضة المذابة أين تسلك وحيث تشاء، وبشموخ بتألق سحرا في جداول وشعاب تفترق وتلتقي حتى المستقر الذي كنزها كإكسير الحياة النادر الثمين لكل أحياء الأرض والأرواح.

وكم تكون قطرة وحيدة منها عزيزة جدا في امتدادات الصحراء القاحلة والقريبة بينما ينهمر منها هنا غزيرا ويتلألأ في مجاريه وفي المستقرات، إنها كنوز وفيرة في كل الأرجاء، في شلالات وجداول وبرك صغيرة وكبيرة وتفيض من الأرض وبين الصخور كالنوافير في ينابيع وعيون متناثرة ولا تتوقف أو تنضب أبدا.

كل مكان في هذه البقعة هو جزء وامتداد في السجادة الخضراء المطرزة

بأصناف الورود والأزهار الحقيقية، وتحفها الشجيرات الباسقة بتناسق فطري أو بوحشية الغابات الفارعة، والكثير منها محمل بأشهى أنواع الفاكهة وبأصناف الثمار بالكاد تحصى، منها ما يتدلى من الأغصان وينتشر على الفروع وما يزحف ويدب على الأرض وما تتشقق عنه الأرض وما يتسلق ويعرش من الزرع والثمر، وتتشعب بين ذلك وحوله في جميع النواحي أحزمة من غابات أشجار كثيفة متكاثفة تعلو أحيانا وقد تحجب ضوء السماء، وفي أمكنة متناثرة نشأت غابات منسقة من أشجار ضخمة وعريقة من السدر وأشجار التين واللوز أو الجوز وأنواع الفواكه، وليصبح كل هذا الملكوت الأرضي فقط لمن سكن هنا، جنات ممتدة تمتزج الطبيعة العذراء بالبساتين وتكتمل مع خلفيات من غابات السفوح حتى أعلى قمم الجبال حتى تلتقي بزرقة السماء.

ومن عظيم ما وهبت هذه الجنات أيضا ذاك الجو الرائع والمعتدل على اختلاف الفصول، فالهواء يهب عليلا لطيفا من كل النواحي بنسمات محملة بأريج الأزهار البرية وورود جنائن البساتين وبعبق شذى الثمار وأزهارها الفواحة في تآلف متجدد للأخلاط المتطايرة وامتزاجها في الهواء وانتشارها في الأجواء كأروع الأصناف من روائح العطور.

يبدو أن من سكنها من أوائل الأقوام لم يكتفوا بما تواجد فيها من خيرات ونعم متولدة من الطبيعة البكر، فطمعوا بالمزيد وبالتجديد، فنقحوا ولقحوا فأضافوا وأبدعوا ونجحوا في البذر والإنماء وإنتاج الكثير من أنواع النبات والثمر ورعايته حتى أصبح لديهم ضعف جنتهم الأرضية توسعا وتنوعا من البساتين المترامية،

وتنعموا بأنهار المياه وبالجو اللطيف المعطر النسمات ولكن! بدأت تنغص عليم وتحاصرهم بعض الأحيان أفكارا غير مريحة سرعان ما تزول بطردها وباستبعاد حدوثها، فهذه الجنة زحفت متسعة حتى أصبحت منظورة من الأطراف البعيدة والمحيطة بها من الصحاري الجافة المجهولة المنتهى، وسراب آفاقها الممتد حيث تحترق في أعماقه تحت لهيب الشمس على الدوام معظم الأصناف من مكونات الحياة وما قد لفظت آخر أنفاسها على لهيب مواقد العطش، وفي رؤيتهم لهذه الخلفية الملتهبة هي ما أقحم الذعر في نفوس ساكني هذه الجنان خوفا على جناتهم وأنفسهم.

أخذت تزداد هذه المخاوف حتى أصبحت تتجسد لهم وتراءت لهم أشباح الطامعين حقيقة في أوهامهم وأحلامهم وفي وعيهم أيضا، فأصبحت تخرج من جوفهم حدسا ثم همسا ثم جسدوها في مجالسهم في حكايات غريبة ثم أوجدوها في نبوءات وتوارثوها ودوت أصداؤها في كهوف الكهنة والمعابد، وظهرت أمامهم كالحقيقة في حمى الكوابيس فتراءت لهم في جحافل غامضة تسد بسوادها كل أفاق الصحراء، وتخيلوها تتقدم نحوهم فوق الرمال في زحف لا نهائي التواصل، في تراكم سحب الجراد، وربما تكشف لهم البعد كجموع مخلوقات بدت لهم مشوهة تترنح بأقدامها وتتدلى ألسنتها من أفواه فاغرة ومتخشبة الشفاه من شدة العطش، وسمعوا أصواتا لها تعلو وهم يلهثون بهمهمة مخيفة وصراخ مريع يستغيث لهفة لقطرة من مياه جناتهم العذبة الباردة.

كما صورت لهم مخاوفهم طلائع لحشود في مخارج وأطراف الأودية السفلية،

وظهرت لهم بأعين زائغة تشخص نحوهم بينما تقفز بهم الأقدام النحيلة كالجنادب فوق الصخور والأحجار المتوهجة تحتهم ومن فوقهم يشتعل جحيم شمس القيظ المتقدة في أطول ظهيرة، وأجوافهم تتأجج سعيرا بحريق الجوع والعطش كأفتك مجاعة جفاف فوق الأرض.

تنامت المخاوف كثيرا مع توالي الزمن ومع نزايد وتطور الخيال الى الحس بالتوقع الوشيك المتكرر ببزوغ الجحافل المغيرة في الآفاق ورؤية بريق سيوفهم متوقدا بالشهوات التي تقدح من أعينهم وأنيابهم وهم يشقون سحب وأعاصير غبار الصحراء المحلقة بجنون من فوقهم وحولهم، وهم ينطلقون في شوق عارم ليقتحموا ويجتاحوا كل شبر في هذا الفردوس، ويتوغلوا ويوغلوا ألسنة الطمع الحاقد في دماء أهلها والارتواء منها قبل الماء، وممزقين لحومهم ومهشمين العظام بعد بريها من اللحم.

هكذا تعاظم غزو هذه الصور لأعماق أهل الجنان والبساتين وتضخم بأعينهم فلم تعد ترى حولها غير ذلك مع بزوغ فجر كل يوم، وما إن تمسي فلا يغمض لهم جفن بلذيذ نوم حتى فجر يوم جديد، ولم تزرها أو تتسرب إليها ضياء السعادة التي ولدوا فيها وعاش عليها أجدادهم في الحقيقة لقرون وسكنت ونامت في دورهم ومضاجعهم وكانت في منامهم ألذ الأحلام ومضت بهذا في ماضي الأيام حتى حدث الهروب الكبير.

أسطورة السور الطائف

ككل شيء في الكون له بداية ونهاية حدثت العودة العجيبة للأمن والأمان الهارب ذات يوم، وعاد بالنوم الهانئ وبالأحلام السعيدة وغمرت الأفراح الوجوه بالضحك وفاض الابتسام من العيون،

تم هذا حين اكتملت غاية مرسومة في ذات اليوم المجيد وارتفعت فيه وبالتمام كل أطنان الصخور التي اقتطعتها أيدي أفواج من الرجال الأقوياء من أقسى صخور الجبال المحيطة وامتدت بشموخ في الهواء في سور حجري مهيب شديد العلو والمنعة!

منذ ذلك اليوم لطالما شمخت هذه الأرض بمسمى بلاد السور الطائف لعشرات القرون، وظلت تختال وتنعم بأمان حضنه الصخري المنتصب، وظل يحيط بها ويدافع عما في داخله من الخيرات والأنفس أن تمسسها يد من خارجه بأدنى مكروه وحق لها بعد ذلك أن تنام بسلام في وثير مخدعها هذا!

حافظ عليها السور كلؤلؤة في أحضان صدفة قوية في محيط الرمال الجائعة، وكانت وعلى الدوام تتساقط على جوانب هذه الصدفة الصلبة العتيدة كل الهوام يأسا وتتكسر عليها المخالب والأنياب وتتحطم المعاول وتهترئ وتتحلل حولها المجاديف كإرادات كل الطامعين.

وهكذا مخر بها عبر الأزمان وقد أستسلم الجميع عن بلدة السور الطائف وأسلمت للسكينة كما أسلمت للصدفة كل الأمواج الغاضبة في عمق المحيط.

سبتت البلدة في داخل السور كصغير رخ مدلل في عشه تحيط به الأجنحة العملاقة في أمان وهكذا طاف السور على البلدة ومن فيها وعلى مصالحهم وعلى كل الخيرات وتسنده في الزوايا وتتباهى قلاعه الحصينة على كل بوابة واختفت عن العيون في ذات اليوم البلدة وكنوزها تماما خلف هذا السور العظيم، مخفيا كل أثر لها ومنها وجميع ما فيها عن أنظار الحسد والفضول وأعين كل طامع، إذ كبح سمك الجدران الرهيبة وقوتها أي اختراق لأي طامح أو طامع وكبتت من يتجرأ على الإقدام نحوها بالأقدام أو عليها باليد بسوء وكتبت نهاية كل محاولة تجني على أهلها وما ملكوا، بل أن مرآه سيعجز العقول عن مجرد التفكير وتصور الفعلة قبل المواجهة الحقيقة، فعلى صخوره القاهرة ستقهر وتتحطم على أحجاره جميع النزوات والرغبات والأحلام الطامعة. ولكن تظل حكاية السور الطائف بالبلدة لها غموضها وأسرارها، ففي أحد الأساطير التي كانت تحكى في الليالي تحت ضوء القمر، ومع ما سبق من تلك المواصفات والمميزات بات من السهل معرفة الغاية من وجود هذا الطائف الصخري، فتلك الرقعة الخضراء لم تكن حينها ذات قومية كبيرة أو سادها شعب كبير وحكام متسلطون وراغبون بالمزيد من الهيمنة أو الفرعونية ولا الإعلان عن القوة وفرض السلطان، فالهدف بدائي مع تنامي مجتمع صغير ومحدود رغم أهميته، ونشأ كفكرة في القديم الغابر وقبل أن تطرق الأرض القوافل وقبل النمو المترامي للسدرة الاجتماعية وانفتاح اقتصادها.

فتطورت الفكرة الى حاجة ومطلبا لإقامة قلة من السكان في قلب البقعة الخضراء وليس لهم من الأحلام والطموح إلا حماية أنفسهم فقط مع ما لديهم من مكتسبات، وهي بمفهوم هذا العصر الحماية لأهم الإمكانات الاقتصادية الاستراتيجية للمخزون الوافر من الخيرات والثروات الحيوية والمغرية لتصبح مطمعا وهدفا للطامعين من اللصوص ولقطاع الطرق والصعاليك وأفواج الجياع والمغامرين المنتشرين في أرجاء الجزيرة، ولم يكن ليمنع هجماتهم أو يقف في وجه غاراتهم ويحمي تلك القلة إلا مثل هذا السور الجبار وبما وضع عليه من قلاع وتحصين، فكانت على صخوره الصلبة تتحطم كل الأماني مع بداية أو نهاية كل غارة، وتصد أبوابه والمتاريس بأقصى قسوة نزواتهم وتسفه أحلامهم تحت الشمس المشرقة أو في فترات المساء باقتراب الغروب ودبيب الظلمة وترامي الليل الدامس حيث تغلق أبوابه ويحتضن البلدة ومن فيها زاجرا وكابح عنها كل طامع ويتم حمايته ليلا باقتدار كما ينجح فيها بالنهار، فلن يدخل المدينة أو يخرج منها أحد حتى تشرع هذه الأبواب مع شروق كل شمس في يوم آمن جديد.

منح السور الطائف اسمه لهذه البلدة العريقة كنيشان استحقاق لأدائه المشرف الطويل في حمايتها وجميع المساكن وأهلها ومظاهر حياتهم مع ما ملكوه، وهذا " الطائف " لم يقم في البدء شيطانيا وطاف في يوم وليلة على جميع الأودية والجبال والأراضي الخضراء بالكامل، فأعداد ساكنيها قليلة مع أن ثروتهم وإنتاجهم الكبير والمغري يجعل من غزوهم غاية محتومة ومن السهل

مهاجمتهم متفردين في مساحات من المزارع المترامية والمتطرفة ونهب ما جمعوه من المحاصيل، ولهذا فالأسطورة تقول:

أصبح مع مرور الزمن من يقطن في هذه الجنائن الخضراء ويعيشون فيها وهم امتداد لسلالات متعددة انتشرت من نسل أول أنفار قدمت لهذه البقعة، ونمت بالتزاوج في عائلات كبيرة ثم انتشرت في عشائر متقاربة على سفوح الجبال وفي بطون الأودية وتكيفوا وانهمكوا في الحياة بسلام فيما بينهم وبما يزرعون ويحصدون من البساتين، وربما اختصموا مع بعضهم في بعض الأيام كطبيعة بشرية بالغيرة أو الطمع بمواقع أرض مميز أو على مواقع زعامة ولكنهم في الحقيقة متماسكين في كتلة اجتماعية متصلة ودوما وتحت إدارة شيخ كبير المقام بينهم وفي مجالس عامة لاتخاذ القرار في المسائل العامة والهامة، والغريب سرعة تجاذب أطرافهم لتلتحم من أجل مواجهة عدو كهدف واحد مشترك وحينها تختفي أي خلافات أمام العدو المشترك وهو كل قادم من البعيد وكل خارج عن روابطهم.

ولكن استمرار الغارات على أطرافهم والأطماع بهم كانت تنهكهم وترعبهم بالرغم من تفننهم في إحاطة أنفسهم بنظم دفاعات منوعة حول المزارع المتباعدة وفي الأودية وفي نصب الشراك ووضع الكثير من العوائق والعراقيل التي تبطئ أو تفسد جوانب من قوة التأثير للمفاجأة من الغزاة كما توفر لهم الوقت الكافي لجمع قوة للردع من العوائل المتفرقة حتى يتجهوا ويصلوا الى مواقع الغزو للمواجهة أو لمنع الهجوم، وربما تظل أغلب النتائج في مصلحة

جسارة ومهارة الغزاة مع تراكم الخبرات لأكثر اللصوص والتطور في سرعة تنفيذ غاراتهم، والأخطر أن التغيرات حدثت في فترة ترهل البنية الأمنية لهؤلاء القوم بالتحضر وقد أصبحوا أهل زراعة واستقرار وغنى فاحش وبالتالي اختلفت أيضا معطيات طبيعتهم الحياتية والفكرية، فاختلفوا عن فكر أهل الصحراء وأصبحت الحروب والقتال ليست غاية بعينها في حياتهم كالأعراب من حولهم، وإنما هي شر لابد منه ولغرض حماية أنفسهم وما يمتلكون فقط.

ومن عاداتهم أن مثل هذه التجمعات الكبيرة لا تحدث إلا في الخطر وفيه يلتقي كل شتات الأفراد ورؤوس العشائر بالشيخ الأكبر ورأس التنظيم الاجتماعي الكبير وبزوال الخطر يذهب كل إلى شأنه في مزارعه وتجارته، وتحدث أيضا مثل هذه التجمعات ولفترات أطول في الأعراس وفي مواسم حصاد المحاصيل المختلفة، وهي متعددة وطوال العام، وقد اختاروا لهذا التجمع بقعة متوسطة ومرتفعة وواسعة لتحوي هذه الملتقيات وأسموها ميدان التعكظ وهو يعني التجمع والنظر في كل الأمور، وفيه يجتمع الداني والقاصي في جميع المناسبات وأخصها مناسبات جني المحاصيل وتبادلها، إذ كانوا يحضرون هنا مع كل موسم حصاد ومعهم أجود ما تنتجه مزارعهم، ويتباهون بأصنافها ويجري استبدالها بأصناف أخرى ينتجها آخرون، وبمرور الزمن أصبحت هذه البقعة مركزا دائما للتعاكظ أو سوقا مجمعا لهذا الغرض، وأصبح استبدال منتجاتهم أسلوب ذلك العصر في البيع، ولاحقا شارك فيه أهل البوادي وقرى بعيدة لاستبدال منتجاتهم الحيوانية وغيرها بالمحاصيل الزراعية، وبدأ

يتوافد غيرهم من القرى الأكثر بعدا، وزاد على ذلك بدء تدفق حملات قوافل من باقي الأقطار وأخذت تتزايد ثم لم تتوقف.

ومر تاريخ وجد فيه أهل البلدة أنفسهم من أكبر الأغنياء

بعد أن أقاموا أبنية ثابتة في موقع السوق محصنة بحراسة أولادهم كمجمع مخازن واسع لتجميع مخزونهم من الثمار وحمايته جماعيا، وتخلصوا قليلا من الغزو الذي تتعرض له مخازن المزارع.

وفي أيام لاحقة أخرى تركوا السكن الدائم في المزارع واعتادوا الإقامة فيما يبنى فوق هذه المستودعات من الحجرات بعد أن كانت فقط لسكن من يقوموا بالحراسة والعمل في المستودعات من أولادهم وقد أصبح لهم فيها زوجات وأولاد، وبهذا تحولت هذه السوق إلى مجتمع سكني جديد ومتنامي، حيث لكل مزارع متجره ومخازنه الجاهزة للكثير من الإنتاج، وهي حلول بالصدفة عما كان يسبب قلقهم بالفشل في حماية المحاصيل في المزارع المتناثرة، فأمكن السيطرة عليها من قرب في منطقة محددة، ومن ثم تحولت هذه المباني أيضا إلى مصدر رزق دائم في فترات التناوب بين مواسم الإنتاج والفصول لتكون مركزا دائم للتزود بالمؤن بخاصة للأعراب والقوافل وغيرها من المسافرين، وبتوالي الأيام أيضا اكتشفوا أن هذا الحل أصبح يحمل الأخطار بحجم نمو تجارتهم ونضخم أموالهم.

فلم تدم بها أفراحهم بالأمان طويلا بعد أن بنيت فوق المخازن والمتاجر الكثير من البيوت وسكنها أفراد من أبناء عائلات هؤلاء المزارعين وتكاثروا وتلاصقت

ووضعت طبقات بناء أخرى فوق الأولى وتحول المعرض أو السوق لبلدة سكنية عامرة، فكان لابد أن تنشأ فيها من بينهم مهن وحرف وخدمات جديدة غير الزراعة، وتباينت هيكلية المجتمع الفريدة وبرز من يتخصص ويهيمن أو يدير نوعا من الثمار أو البضاعة ومخازنها كتجارة خاصة في نوعية خاصة في الثمار أو الحبوب، وأنشأت الحاجة أماكن لتبادل ولبيع الأقمشة والزيوت والجلود وتلا ذلك أصحاب متاجر متنوعة البضائع والباعة الأصغر حجما للمؤن المختلفة كما ظهرت الورش الصغيرة للحرف ومهن جديدة والعاملين عليها.

وفي النهاية تحولت هذه البضائع لأرطال من الذهب والفضة ملأت الجرار وتكدست في تلك البيوت وجميع ساكنيها هم هؤلاء التجار، الذين أتضح لهم بلا أدنى شك أن مخاوفهم لم ترحل إلا مؤقتا بل أصبحت أكثر خطرا وأشد جسامة، وتمثل بحجم البلدة وامتداداتها الممتلئة بأضعاف مضاعفة، فقد كانت في السابق مجرد حفنات من بعض تلك الثمار هي جل ما يغري اللصوص حين تغير سقف الطلب عليهم وظهر لهم هذا الخطر مضاعفا وبالحجم الأضخم المتناسب مع ما كنزوه من ذهب وفضة وثروات أخرى، وتحول معها الطامعون إلى فرق كبيرة من المحاربين وبالعتاد المناسب وهم الأشد طموحا لتعلن بها مؤشرات الخوف فيهم بلوغ أقصى درجات الرعب في القلوب لتغص بها الحناجر!

وبدوام الحال بالبلدة وبأهلها بازدياد التورم أكثر في الغنى مما تضخ لهم الأرض وبتكدس المردود من أثمانها في خيرات بأنواع الأموال في الجرار والبضائع

المتراكمة في المخازن وتحت الأرض وما فوقها من البيوت التي تكاثر أهلها وتوسعوا في البناء عاليا في طبقات متوالية وكان في مقابلها يتفوق الخط الموازي للخطر من اللصوص والطامعين مع توالي التدفق وشراسة الغارات التي لا توقفها الخسائر في كل الأطراف في المواجهات

بدت لهم بأنها أبدية لن تنتهي.

حدث في هذه الأثناء في خضم المخاوف المتلاطمة بمشاعر الرعب وهي تكاد تفتك بأهل البلدة وبأشد من

القتل في الغارات الحقيقية، وكان شيخ البلدة يشكو هذا بنظرات زائغة وحديث كالهذيان مع أحد ضيوف البلدة وكان أدعى بأنه ذو شأن، وقد قدم بتجارة من أحد ممالك بلاد الرافدين قاصدة مملكة اليمن، ولسبب جنحت بهم القافلة عن الطريق المعتادة نحو بلاد الفاو في قلب الربع الخالي ليجدوا أنفسهم في هذا المكان.

وظهر أن الضيف ليس مدعيا بالكذب، فهو تاجر وعالم وذو مكانة في بلاده فيما وراء النهرين، وقد شارك ثم تمرس في بناء عدد من القصور والأسوار للملوك ولأصحاب النفوذ، وكان الرجل يبتسم وهو يشاهد الهلع الشنيع في أعماق عيني الشيخ، فأشار الضيف للمتكلم وتوقف برهة تلو البرهة مفكرا، وحين تكلم الرجل في البدء ربما ظن الحضور بأنها تهكما ولكنه تحول في القول والملامح فورا ودون سبب واضح إلى أبعاد أكثر جدية:

– ابتنوا أسوارا كملوك آشوريا وأكاد وأبناء يعرب ..

دهش الجمع وهتف آخرون متسائلين بتعجب:

- هاه؟

- أسوار؟

- لكأننا سمعنا بشيء عن .. ممالك وملوك تبنى حولهم جدران ضخمة ومنيعة ..

- أهذا قصد القول؟

كان في الحضور من فغر فاه قبل الاستجابة للسخرية وتناثرت الإجابات واللغط في تساؤلات كالهذيان ولكن الضيف عاد إلى القول في ثقة وجدية بالغة وانتهى بعبارات ربما ماكرة هدف منها التحفيز:

- إنكم جمعتم ثروات الملوك! وستصبح ذات يوم وبالا عليكم! وسيستمتع قاتلوكم حقا بقتلكم والتنعم بكل هذه الخيرات وبالمجد!

وضحك مقهقها فيما زاغت أعين الحضور الأذكياء ذعرا وحينها غمزت كلماته على أشياء هامة وضغطت بقوة على أكبر مواجعهم ليرتفع صوت أحد الأعيان:

- ويحك! هذا ما يصيبنا بالرعب نهارا وطوال سنين افتقدنا كل لذة للنوم ليلا ..

سارع شيخهم وكبيرهم ليقطع على القوم التمادي في إظهار الذل والشكوى الا أن الفكرة الغريبة قرعت جمجمته وجالت في خاطره الفكرة وفعلت فيه ما فعلت!

- صه!

أمرهم الشيخ الحكيم بالصمت ووجد بأنها ستكون فكرة جنونية لو تحققت، ولكنها ستحمل تبعات خطيرة مجهولة النتائج متى سمعت منه إشارة بالموافقة، ومع صمم على الخوض في صعابها مهما كانت النتيجة والثمن، وفي حذر أن يسفه عقليته وأفكاره بعض الجمع الحاضر ومن لم يحضر لاسيما من أهله أو منافسيه وتهيب من صعوبة تفهم بقية رؤساء العشائر، ولكنه يدرك تماما أن مشاعر الخوف في قومه ليست بعيدة عن مخاوفه، وكلاهما أقوى رغبة في تحقق الأمان وهو ما سيجعلهم خير نصير، وألتفت الى الرجل مستنجدا بذكائه وبعد نظره:

- نعم! أنت قلت إن لدينا الأموال مثل الملوك! ..

وربما لدينا الأكثر!

والمؤسف! أننا مجبرون على التخلص منها كرمال

الصحراء إن كان فقرنا منها سيحمي أرواح أهلنا

وأبناءنا من سيوف اللصوص والقتلة و ..

ثم وهو يبسط كفيه في قناعة ولكن تخفي تساؤل وحيرة وتردد خجل، فرفع رأسه متفحصا عمق عيني الرجل يهدف جس صدق هذه المعلومة وإمكانية تحقيقها على أرض الواقع وعلى هذه الأرض والتحقق من خبرات ومقدرة الضيف في المساعدة وكيفية تحققها:

- لكن! كيف السبيل إلى .. ما ترمي إليه؟

أنفجر الرجل ضاحكا وهو يقول:

- سبيل ماذا؟

التخلص من الأموال؟

لا تقلق! من هذا فنحن نخلصكم منها بسلام، وسنحملها معنا في قوافلنا لتهنئوا بعدها بألذ النوم والأحلام! ..

وأنفجر الرجل ضاحكا فيما الخوف العميق قد عقد ألسنة الجمع ومنع الانجراف بالضحك لهذه الطرفة، وصوبوا أنظارهم نحو الشيخ طلبا للغوث ربما ولكنهم رأوه صامتا جامد النظرات مع ملامح الجدية على وجهه، فصمتوا مترقبين أن يجدوا في إجابة الحكيم ما يهب لهم شيئا من الكرامة ويستمتعوا بسخرية مضادة للضيف الثقيل وشخصوا والشيخ يرد مبتسما:

- وما يدريك؟

فما يدري ويبلغ كل الجهلة من اللصوص

والقتلة في كل البلدان حولنا بأننا فقراء؟

إلا إذا كنت ستطوف بكل أحمالك صحاري البلاد وكل الأنحاء حتى اليمن والشام وتبلغ كل لص وتشهدهم فردا فردا على أنك أخذت كل أموالنا وهي محمولة معكم ويشاهدونها في قوافلكم!

ضحك الضيف الأكادي منبهرا من الرد وساخرا من صعوبة موقفه الذي أختاره والوضع الذي اختير له وما وجده الحضور فرصة لإخراج المكبوت من الضحك والرجل ينفض يديه متبرئا ويقول:

- ويحكم!

عندها كل لصوص الأعراب ستسلخ جلودنا قبل جلود

ابل قوافلنا ..

ووجد كبير القوم أيضا الفرصة المناسبة لنقاش المسألة:

- يا ضيفنا! رب أنك قلت الحق أن لا بد من بناء

الأسوار ويمكن تحقيق هذه الغاية هنا ولكن ..

هل قلت لنا كيف السبيل إلى بناء ذلك؟ وليس التفريط بما نملك؟

وأكمل: بتفاخر:

- نعم! نحن نملك من الأموال الكثير والكثير وإنما

ينقصنا العلم والخبرة في هذه الأمور ومتطلباتها مع قلة الرجال؟

صمت ظاهر الرجل وأعماقه ترقص بأفراح مجد محتمل وراحت أفكاره تحلق بينما يده تبرم أطراف شاربه الضخم في أجواء وفرتها الإشارات الخفية من الشيخ لمن حوله بالصمت، وبعد أضعاف من الوقت ألتفت الضيف إلى الشيخ مبتسما وفي جدية وعمق تفكير ما جعله يستهل عبارته كواقع أو حاضر تام:

- أيها الملك!

سيكون قد قام السور حقيقة بمقدرتي وفي حال يسيرة

اذا كنتم تملكون الرغبة والهمة الواحدة!

أراد الحضور أن يصرخوا بفرحهم وأن يدلوا بدلائهم في المسألة مع ذهولهم وتجمد أفكارهم بما فجر الدهشة والشعور بالغرابة فيما سمعوه من الضيف وهو يطلق مسمى "الملك" على شيخهم!

إلا أن نظرات الشيخ الثاقبة أخرستهم لأهمية الغاية التي ستتحقق لهم في النهاية وهي الأمان وليس المسميات.

فألتفت مبتسما نحو الضيف صاحب المشروع الخطير وقد جاء حاملا مفاتيح تحقيق الأماني والأحلام وان لم يستطع تجاهل رنين المسمى يجرس في أذنيه ويجلجل في أعماقه وآخذة فيه نصيبها من الفراسة والدراسة، فوجد أنها لا تحمل سوى المنطق متى ما تحقق هذا الحلم الأمني وفي زمنه كحاضر تام:

- أقسم عليك! وبما نحمل لك من عظيم الاعتزاز بك
وبما في قلوبنا من الود كضيف كريم فينا وفي بلادنا،
وبحق ما تؤمن به أن تعلمنا عن تلك الأحوال!
فأنا كملك لا أهتم اليوم بالمال .. في سبيل حماية
مملكتي ويأمن شعبها ..
وهم أهلي واخوتي وأولادي أيها العزيز!

وبذات على الرجل الابتسامة الواثقة والجدية فأجاب:

- إذا فأنا هنا الخبير الوحيد القادر على عمل مثل هذه
الأسوار! ولكن!
التكلفة ستكون عظيمة، ونصيبي دون تحفظ سيكون

هو نصف جميع أموالكم ربما!

كادت أن تعلو من القوم أصوات الامتعاض وربما الشتائم إلا أن كبير القوم سارع بوأد مشاعرهم العدائية وقبل أن تمس الشفاه للخروج بما جعلهم يترنحون ذهولا ولفترة مما سمعوه:

- وأنا أقبل أيها العزيز!

ولكن ما ندفعه ليس مقدما!

أبتسم الأكادي ونهض وجال قليلا ثم ألتفت نحو الشيخ وقال:

- طبعا! هذا رد حكيم!

وأقصد الموافقة وان بكل ما تملكون!

ثم ونظراته تتفحص أعين الرعية الذاهلة ليؤكد وجوب رضاهم بمنصب شيخهم وقراره التاريخي:

- يا قوم! أعلم بما يجول في أذهانكم ولكن تأملوا الزمن ما بعد السور!

كيف سيعوض ما دفعتم به من

الأموال أضعافا!

أما وقد أكسبكم السور الأمان الحق والمنعة!

فالمؤكد بأنه سيحفظ جميع مكاسبكم لاحقا وهذا لا يقدر بثمن ..

ستعظم أموالكم وشأنكم في الأمم وتكونوا أمة عظيمة!

وصرخ فيهم:

- ان لم تدفعوها لتحميكم ستأخذها الذئاب يوما مع

ارواحكم!

وراح يضاحك الجمع وهو يقول:

– أما ثمن صناعة السور .. فهو لكم الآن أكثر من

عادل مع مكاسبكم!

وأضاف فورا:

– ولهذا! وخلال الأيام القليلة القادمة وأثناء توقف

القافلة أستطيع أن أخمن .. بل أحسب بدقة تكاليف بناء السور، وما عليكم إلا أن تحسبوا أنتم جميع ثرواتكم وعليها سأقيم موافقتي ومعها مقدار حصتي! ولكن الحذر!

وبعبارات ونظرات تشير إلى جدية التحذير والتأكيد على وجوب الالتزام بهذه الثقة المتبادلة:

– فحجم الرصيد لديكم هو الحافز! أيها الملك الحكيم!

فالتقتير والبخل يقتل العمل العظيم!

فهم الشيخ المغزى تماما ونهض بحماس ليمسك بيد الأكادي ويشد عليها وهو يهتف باعتداد:

– نعم! نفعل! وأعاهدك!

ونحن نسل قوم لا نملك أعظم من صدق القول

والعهد والوهد والفعل والأمانة!

وفيها ما يجبرك على الموافقة!

وكانت وقفة نظر عميقة متبادلة ومواجهة صامتة بين الرجلين انتهت بالشد مرة أحرى على الكفين وقبل أن يغادرهم الرجل الضيف أراد أن يختم الحوار بأمور هامة قائلا:

- أجل! إن وفقتم وكما سبق القول .. سأوافق!

وسأحدد ما أستحقه وأن يسدد جميعه خلال الخمس

سنوات الأولى المقدرة من بدء العمل!

ونظريا هذه ليست زمن الانتهاء من بناء سور

عظيم وجبار حول مملكتكم ..

رفع الشيخ يده قائلا في حزم وقاصدا لهذا بث الطمأنينة والتواضع أمام قومه وخلق الحماس فيهم:

- نريدها .. مملكة قوية!

فيها أمن وسلامة أولادنا وأهلنا!

فرد الضيف بأقصى الثقة والجدية:

- وستكون كذلك!

ومنذ الغد سأعطي عظمتكم جداول فيها بعض

ترتيبات هامة ولقومك وبمشاهداتي على الأرض من حدود العمل، ولحين

عودتي من اليمن مطلع الشهر القادم سأحضر جميع ما أحتاج من العدة

والعتاد والمهرة من الرجال للبدء فورا على ما قدرسمتموه كحدود لمملكتكم.

كان القوم يرددون في فرح وحماس كلمة نعم وهنا قال الملك القادم:

- إذا .. نحن على كل شيء متفقون؟

وألتفت نحو الرجل أيضا وهو يقول:

- ونحن أيضا متفقان!

ليجيب الخبير ببساطة مبتسما:

- طبعا! ولكن ليس قبل حساب ثرواتكم وإقرار نصيبي!

فأنا من يعلم بحق مشقة هذا العمل وعواقب تركي لبلادي وأهلي كما سأتكفل بصرف المال لإحضار الرجال ودفع أجور الأيدي الماهرة والعقول الخبيرة وهؤلاء سأجلبهم من بلادي ومن بلدان اليمن، وما عليكم إلا .. التكفل بمن أحتاج إليهم أيضا كجيش من العبيد أو العاملين.

كان بعد أن عاد الأكادي أن تحقق العهد وبكل ما وعد وانتهى بناء وقيام السور وربما قبل ما حدد من الوقت وإذا بذلك الطائف الصخري الغريب شامخا وقد أخفى جميع البلدة عن الأنظار وهو يحيط بها كالمارد بين ذراعيه ويضمها إلى صدره ومن فيها من سكان وبكل وفاء وحنان، وظل هكذا على امتداد القرون التالية والغائرة في قدم التاريخ.

كان فيها بطلا جسورا يظهر كل قوته وجبروته على كل من أراد الشر بأهل البلدة من كل من هم خارج السور، مع أنه ظل يخدم بكفاءة ويسهم ولا يمانع بأن يتم التواصل الودي والتجاري مع أهل البلدة نهارا من خلال بواباته المنيعة،

فيقوم بتنظيم دخول وخروج معظم قوافل التجار وجميع أصحاب المنافع والمناسك، وأكبر تلك المهام تجري من أكبر البوابات وأهمها وهي ما عرفت واشتهرت باسم البوابة الشرقية، ووجدت البوابة اليمانية أيضا أهمية مماثلة لعدة أسباب فالبوابة الشرقية تتحكم بكل قدم قادمة أو راحلة شرقا وغربا أو باتجاه الشمال أو الشام وتتحكم اليمانية بمن يقدم من بلدان اليمن أو وجهة الجنوب عموما، وظل هذا الطائف الحجري وبواباته يقوم بجميع المهام نهارا بإتقان ونجاح مع مقدرة رجال الحرس ويقظتهم في منع غزو المتسللين والدخلاء المفسدين، فشهرته أصبحت مدوية في الأمصار، وفي توالي العصور بمقدرة السور الأزلية الرهيبة في المنع والردع لجميع الأعداء وكل من نوى الغدر بأهل البلدة مهما بلغت قوتهم وتمرسهم في القتال وفي الغزو والسلب أو بلغ بهم الطمع بخدعة الأمل باحتلال البلدة ونهبها، فكثرت أخبار تساقط الغزاة واللصوص حول جدرانه العالية المحكمة البناء والقلاع المحصنة بالرجال وبأنواع التسلح، واستمرت وسادت هيمنة قدرته على كامل الأراضي والأودية والجبال المحيطة بالبلدة من الخارج في خطط مدروسة في توزيع المتاريس والكمائن والعقبات المعيقة

لجميع المهاجمين ولضمان دحر أي معتدي.

تحقق أخيرا الأهم والحلم القديم بالأمن والحماية التامة لأرواح أهل البلدة واستمرار سلامة ممتلكاتهم وجميع مصالحهم.

فالطائف الصخري أصبح واقع وكيان ورمز وعشق لمن عاش في دفء أحضانه بين جدرانه، حتى غدت قائمة على الدوام في داخلهم ومتواجدة بين أضلعهم في تراص حجارته كخلايا وعناصر تشكلت منها أبدانهم وتتحرك فيها مشاعرهم وتجعلها نابضة دوما بالسعادة وباختصار أصبح الصدر الحافظ والأمل الممتد بهم في رحاب الزمن حاملا لهم وفي قلوبهم الأمن والشعور بالحياة وكأنه يهبهم الحس معه بالخلود! فهم يرونه بأعينهم بظلال أسواره الشامخة وفي قوته الراسخة داخلهم وفي عمق الزمن بنظرات العجب على امتداد جدرانه العتيقة كدائرة زمن لا متناهي بما يمنحهم الشعور بالطمأنينة بين جناحيه وتحيطهم السكينة وبالأمان في صلابته ومنعة الأبواب والمتاريس ليصبحوا هم فيه من أغنى الأغنياء بالأمان أولا مع ما يكنزون من المال بفضل عظمة مصادر الأمن التي تنبع من عمق أساسات جدرانه وأبراج بواباته الخارقة القوة وهي لا تنضب ولا تقدر بثمن.

حكايات بلاد السور

كان حدث في قرون لاحقة أن زاد فيها تفتح البشر وتفاعلهم وساد بين أكثرهم تبادل المعرفة والمصالح وتعارف الناس بين قارات الأرض، فتضاءلت وحشيتهم وأمكن تعايش بعضهم بأسس الحياة المفترضة في تقبلهم مبادئ المشاركة ومنهم بالأخص شعوب آسيا وأوروبا ومنها بعص أرض جزيرة العرب، فكان أن كثرت وامتدت الطرق والمسالك بينهم، تمتد في الأودية وتخترق الجبال وتعبر الصحاري والفيافي في تشابك بعد تباعد وتجاذب بعد تنافر في شبكات من طرق القوافل وتنقل المسافرين في كل اتجاه لتأكيد وجودهم وانتماءهم لبشريتهم، وجرى تبادل المنافع بينهم مع بعضهم، فشقت القوافل طرقها نحو لا نهايات من العالم، وتجرؤوا ركوب البحر وعبور المحيطات إلى جهات كانت مجهولة بعد أن حجبتها هيبة ظلمات البحار والمحيطات ومخاوف المجهول تمنعهم التوغل لاكتشاف المجهولات وإنشاء أي روابط وعلاقات جديدة إنسانية وتجارية، فاتصلوا وتواصلوا بعدها بالكثير من الأمم والثقافات، وهكذا ازدادت حركة القوافل المحملة بالناس والبضائع لتعبر وتزيل عزلة فيافي جزيرة العرب الغامضة أيضا وأزاحت أكثر الغموض فيها عندما وطئت الأقدام الغريبة عنها معظم بواديها وحواضرها.

والمكرمة الإلهية لم تغفل عن هذه الأراضي المباركة فأمدت أرض السور الطائف أيضا بالحظوظ وأهلها كما في كل عهد ما يميزها، فأكسبتها على ما فيها من

الخيرات أنواعا أخرى من الكنوز، وأصبح في موقعها الذي حمل لها أكثر من ميزة في بالغنى بزيادة في علو الشأن، فتوسطها مكنها من الإشراف على أهم المسالك نحو معظم الجوانب المأهولة في كل الاتجاهات من جزيرة العرب وغدت كما لو أنها بوابة وحيدة بين غرب الجزيرة وشرقها وبين شمالها والجنوب، مما جعل منها محطة استرخاء لكل رحلة قادمة سواء راكبة أو راجلة من والى الجهات الأربع، ففيها وقفة ما قبل النهاية أو منها نقطة بداية وانطلاق جديدة في امتداد رحلة عودة أو وذهاب لجهة جديدة نحو بلدان أخرى.

حتى حين بزغ النور الإلهي من السماء نحو الأرض وإنسانها وانسكب في بيت الله المعمور وتوهجت ضياء الرحمة بنداء التوحيد والحج من أرض بكة في كل الأرجاء، وبعد أن انطلقت أضواء الرسالة العظمى من جزيرة العرب لتنتشر وتبدد الجهل والظلمات المخيفة وما جثم من شر فوق البسيطة في البر والبحر وعلى الصخر والأشجار وتغلفت أرواح البشر بالعصيان والكفر كان لهذه البلدة القريبة من هذا نصيبها الأزلي بما جعلها تتهيأ في عصر لمكرمتها الخاصة للقيام بواجباتها المشرفة لتضيفها إلى ما سبق، وليبقى هذا الواجب حقا أبديا في كل حاضر آت.

فتموضعها على سفوح من جبال الحجاز وبالقرب من أم القرى وما وجد في أوديتها من منافذ نحوها تسهل الاختراق لما وراء الحاجز الجبلي الشاهق الارتفاع والعسير التجاوز وبتهيؤها لهذا الدور أكثر نحو كل المقاصد تعددت فيها المواطئ ورحلات القوافل التي تجد في هذه البلدة النقطة أول أقوى

نفحات السعادة ومقدما قبيل بلوغ المراد، حيث أن تلك الرحلات والأسفار طويلة ومجهدة الى جانب المخاطر والمشقات فكانت عناية الله بهذه الأمم والعباد قديمة، فأوجدت لهم هذه البقعة لتكون نقطة الراحة والتجمع والالتقاء المثالية، وهي مؤهلة نماما، بأن تظل على مدار العام لطيفة الأجواء عليلة الهواء كما خلقها الله أرضا طيبة خصبة مخضرة بالغابات وبالبساتين، وبأنواع المحاصيل والفاكهة والأهم من كل ذلك كانت الكنوز المرصودة والوفيرة فيها من المياه العذبة، التي تنهمر عليها كهبة من السماء تجري وتنبع من كل مكان على أرضها على الدوام غزيرة باردة، فأرادها الله أن تكون منتجعا حنونا يخفف عن خلقه ممن يخترق الصحاري طلبا للرزق أو لشعيرة في عبادته وما يلقون فيها مما أثقلهم من المشقات فيجدون ما يخفف عنهم كل وعثاء ومتاعب السفر، ولذا وجب أن تكون أيضا مؤهلة للمغادرين كمحطة هامة آمنة بأسوارها، مليئة بالخيرات وبجميع ما يحتاجه السفر والمسافر ولتجهيز القوافل وأنفسهم في بدء كل رحلة طويلة عبر الصحاري والقفار.

فتحضر أهل الطائف الحجري لهذا الواجب واكتسبوا الجاذبية والمهارة في إدارة اللقاءات وتعاقدات التجارة الرابحة بالسمعة التجارية حيث اتصفوا بأهم أخلاقياتها في إظهار المصداقية والأمانة وصفاء الروح وبالوداعة ودماثة الخلق، وهذه أوجبت عليهم التزامات أخرى فأوجبت حسن الضيافة مع الكرم وتوفير الأمن الأمان لكل قادم، وكان للفطنة ووفرة الجهد دور هام في تأمين كل ذلك مع مستلزمات للمسافرين وقوافل المسافرين وعلى تبادل المصالح والبضائع

مع التجار القادمين عبر البلدة من جهاتها الأربع، وأهمها ما تعلموا صناعته– من كل شيء– له أهمية في حياة الناس.

أن تملك أي بلدة مثل هذه المقدرات وما يشابه واقعها المحيط لا يمكن أن يسهم في بقائها سليمة من الأذى أو يحمي أهلها ما لم تتطور عبر العصور وتتزود بالقوة بما يؤهلهم للحياة الكريمة وللقيام بواجبات عظيمة للبشر الا متى وفقت في بناء دروع حماية شديدة القوة كالسور الحجري الذي طاف حول البلدة وحمى أهلها وخيراتهم.

لهذا تواجدت الأسوار، وحول الكثير من المدن التي حمتها وتوارثنا حضاراتها وان مؤقتا حتى أوصلت ما زرع الأجداد من الثمار لأنسان هذا الحاضر الذي تنكر حنى لتاريخ أمجادها ودكت بعبثية جدرانها دون أن تطرف لهم عين.

وفي الحقيقة ثقافة الأسوار حضارة سادت ثم بادت خلال حقب من الدهر ولكن لكل وقت أذان.

******

لعنة السور الطائف

شمخ السور الطائف بأهله وظل القادمون يسمعون ويرون من البعيد هذه التعويذة الهائلة والجبارة التي ستفني من يحمل أو ينوي بأدنى الشر لأهل السور الطائف!

فلم يعد ولقرون من في الداخل يعبأ بعدها أبدا بالمخاوف وهم يرون النتائج كل صباح على محيط السور ووثقوا بأنهم سينعمون بهانئ النوم وللأبد وكما يعدهم دوما هذا العملاق وتعهد لهم بالحماية وبالوفاء، ويكون على الدوام هذا الجبار الطائف بالبلدة الكلمة الفصل لصالح السلام في داخل نفوس أهل بلدة كانت صغيرة، والمفرطة الثراء والغائرة القدم بعمق التاريخ بمساهمته الجليلة في دحر وإزهاق أرواح الفرسان المعتدين وإسالة الجداول من دماء الطامعين وكذا المغامرين في برك حول جدرانه فكان الثمن في المقابل هو أعظم المشاعر المتدفقة بالمحبة وبالحميمية الغير محدودة له، وبمطلق العشق في قلوب أهل البلدة، وحفظوا له أجمل حكايات الوفاء وأعز الذكريات التي غرسها ونمت في قلوبهم بأكثر وأكبر من اتساع أرضهم والحقول من حولهم، وقد امتدت وتعمقت فيها جذورا وتفرعت مورقة يانعة كالثمار والزهور في واقعهم ومخيلتهم طوال القرون وأصبح لهم هذا السور الطائف الاسم والعنوان والبلاد، أي هو كل الأرض والسكان والتاريخ.

لم تعد تغزو أعينهم المخاوف، ولم تخترق أجفانهم الكوابيس، وتنغص عليهم أحلام لياليهم كلما يحل مساء وتهب نسماته الباردة حين تحجب طبقات رقيقة من الضباب بريق النجوم، فيتسارعون هرولة ليأووا إلى الدفء في مضاجعهم، وهم أعجز من أن يرفعوا يدا لتفتح لهم جفنا لمزيد من السهر، فكل البدن والأطراف لا تملك إلا أن تستسلم للغفوة في عميق الرقاد وبفرط السعادة، هذا لأنهم فطموا على هذا كمن جاء بعدهم وعلى كل ما علموا عنه، بأن كل زوار الليالي المريعة سيهزمون أو يتساقطون بأثقالهم انسحاقا على جدران السور الصخرية المنيعة.

وسيبقى السور فيهم القلب النابض، ولم يتخيل غير هذا أول أجدادهم الشيخ الملك الحالم وكذا غيره حتى آخر حفيد منهم، فهم لن يصبحوا قادرين على العيش دون أن يشعروا ويتأكدوا بأن هذا القلب ما يزال موجودا كما هو في الجانب الذي بين أضلعهم، فتتدفق عندها دماؤهم في مجاريها الطبيعية بالحياة وكذلك يكون جريان الحب في القلوب العاشقة!

كأني بهم تلك الرخويات الرقيقة البشرة في أعمق زرقة

المحيط وتحوم حولها في حالك الظلمة ملايين المفترسات ومع هذا قد أمنت على نفسها بعد أن آمنت بأن لا عيش لها دون أن تحيط نفسها وتلتصق بدروع قوقعتها وبصخور الأعماق المنيعة وكي تأمن فهي تحيط نفسها بقوة الأصداف ومن متحجر المرجان.

وجاء في زمن لاحق أن سمع فيه صراخ مرعب لتلك التعويذة المخيفة ولأول مرة في آفاق الصحراء لتنحسر أصداؤها وتتحول في نهاياتها الى أنين بائس، يبكي مصيره بضياع أمجاد تاريخه وكرامته وهو يرى نفسه عاجزا والخوف والشرور تمزق أهله وأبناء بوابات أسواره، كان يئن موجوعا:

- نعم! أنا الطائف الحجري القوي المخيف لكل
الأعداء والحارس المخلص الأمين لأهلي!
الذين أصبحت لهم اسما وعنوان في كل الأمصار.
لأني كنت قاهر عظيم فلابد وأن أحظى بهذا الحب
والتعظيم في نفوس كل من يعش داخل أسواري!
كما كنت أعلم وأعتدت بنفس الوقت أن أكون أيضا
بغيضا ومكروها ولكن في عيون الجبناء من
أعدائي وهم أعداء أهلي، أهل الطائف الصخري!
كنت أعلم بمن يحمل لي كل المقت وبأكثر وأكبر
مشاعر الكراهية والحقد، وكنت أفخر بأن رؤيتهم
لي من البعيد كانت كفيلة بأن تفجر نحوي
الأحقاد بأقذر وأرخص الشتائم وهم يسلطون
نحوي نظرات العداء والحسد يغلي بأجوافهم
لهزيمتي لأحلامهم الطامحة وأسخر بالشماتة
وكل طموح ينتهي كالعادة باليأس وبموت في جوف

كل صاحب أمل باقتحامي!

فأنا على الدوام لعنتهم التي ستبقيهم أبدا خارج

أسواري لينظروا إلى من البعيد ولا يجدون سوى

جدراني الشامخة باسمة ونهزأ بهم، بأنها ستحمي

البلدة بصلابة وستبعدهم وسنكون البلدة المحرمة

ولن نصبح لأحد من أطيب وأشهى الفرائس.

كم أفنيت من مثل هذه الأحلام والرؤى وبددت أعمارا وأجيالا مضت وهم يجولون بي وحول أسواري وأعينهم لا ترى إلا أوهام العيش الرغيد بشيء مما في داخل هذا الطائف، وكم احتال وصال مرارا الأشداء وأستبسل نحوي تكرارا هواة الرعب، ولكنهم سحقوا على جداري الطائف وهو قاس فتناثرت أشلاءهم على طبقات تربة هي من تراكم وتحلل جثث لمن سبق من المغامرين!

وستطول على مدى العصور حولي وهذه البلدة الجولات والتربص ومن بعيد الصحراء والوادي والجبل وسيظل ردي على الدوام أنا الطائف الصلب والمنتصر أبدا!

ولكن اليوم لم يعد هذا الزمن هو ما كان وأصبح الدوام للحال من المحال، وأصبح حالي كملك الغاب الهرم والعاجز وقد تساقطت منه كل الأسنان!

ليتني كنت هو فأموت وتبلعني الأرض والنسيان ولكن أهلي جعلوا مني مسخا حقيرا، ولعنة!

نعم لعنة!

حين وظفوني كمجرم قاطع للحمة وللرحم، وهذا حقا هو ما أصبحت عليه في زمنهم هذا، وهذا ما وجدت نفسي أحمله لكل أبنائي الذين كنت أرعاهم على بواباتي وحول أسواري!

لأن أخوتهم أهل البلدة حملوني بجميع ما في قلوبهم من الجحود والقطيعة لأبنائي الذين أحتموا بأسواري وتوالدوا وتكاثروا على البوابات خارج السور!

لأنه حدث في أزمنة ماضية أن توافد أفراد من البعيد ينشدون بجواري الأمان ومما في داخلي من وفرة للخيرات بالعمل بين أهل البلدة ووهبوهم الأخوة وزرعت أنا فيهم الحب وفيما بينهم الألفة ووهبتهم أيضا شرف اسمي كأهل وأبناء للسور أو أهل البوابات، وتعهدت لهم جميعا بحماية عهود التعايش الحميم ورعاية الحياة الكريمة طالما رغبوا بها بينهم، وظلوا على هذا حتى تغير الزمن وجاءت إرادة رب الأزمان وكل مكان حين ترعرعت في أهل البلدة الأنانية والعنصرية فاحتكروا واحتقروا اخوتهم! وجعلوني أنبذ أولادي "أبناء السور" كما اطلقوا عليهم أحقر التهم والمسميات والصفات، واستغلوا قوة أسواري لعزلهم وفي تكريس الضغينة بينهم.

وبنفس الوقت استشرى في أهل السور والبوابات الطمع والجشع واستعانوا بالقوة لأخذ ما اعتبروه أرثا مشروع، فتغذت قلوبهم بالأحقاد وتراقصت بهذا بينهم الشياطين فرحا وتسقيهم كؤوس الضغائن فأسالوا الدماء وتفجر الرعب من جديد داخل وخارج أسواري!

كنت ولقرون محبوبا في كل أجدادهم وأن احتفظت اليوم بشيء من هذا ولكن فقط بين أبنائي وفي جانب واحد مني ولكني أعظم ملعون حقا بين أبنائي في الجانب الآخر من السور.

أنا اللعنة! أنا لعنة هذا الزمن، وأنا رب القطيعة!

فليس هو ذلك الزمان وليست هي تلك اللعنات!

فأنا أعلم بمن يطوف حولي الآن، وبما يزرعون

حول جدراني من اللعنات التي تظل تجلدني قسوتها

بمرور الثواني كالأسواط وبأقذر البصاق.

إن شرف الماضي يحرقني وأنا أسمع في سواد

الليالي بكاءهم وما تحمل أحلامهم من الآمال

أو الدعاء الساخط بأن تتقوض أحجاري المتوجة

بشموخ الأبراج فتختلط كحصباء مع رمال

الصحراء.

اللعنة على ما جعلني احتقر نفسي حتى لعنت

تاريخي وأمجادي!

فقد سئمت من وقوفي وأنا أسمع أقسى اللعنات

بجرائم قطيعتي على أبوابي.

أين القضاء! أريد الفنـاء!

****

حكاية الذيب شباب

أصبح المعروف والمتعارف عليه في هذا الزمن أن جميع من في داخل طائف الصخور لهذه البلدة الصغيرة هم بيوت عائلية كبيرة، وتعتبر كل منها منذ القدم مؤسسة أو موقع تجاري أو صناعي، وكان عليهم أن يحموا حياتهم ومصالحهم ومتاجرهم وبلدتهم بأي ثمن، حتى أصبحوا يدفعون على الدوام كل تكاليف هذه الحماية وعملياتها ولأي كائن من خارِج السور أو داخله ومهما حمل هو من المسميات أو أخذها كرسوم وضريبة وإتاوة ومكوس أو جزية ولكنها تدفع على أي حال وطوال حياة كل جيل.

وفي فترة متأخرة منها كانت تنتشر مظلات الحاميات العثمانية النظامية ومعسكرات الجنود وارفة ومتكاملة ومتفرغة للحماية وبقوة لتطبيق الواجبات الأمنية في أرجاء الإمبراطورية، ودفعوا هم خلالها أثمانا باهظة لهذا الأمان وخدماته المميزة، ودفعوا أكثر من ذلك في فترات ساد فيها ضعف هذه الحاميات أو قادتها وتكاثر فيها الصعاليك ومن يستولي على طرق التجارة ومعابر الدخول والخروج من البلدة، والتي تدفع الأكثر لمن يحقق لهم الأمن وان كانوا مرتزقة أو لصوص.

وكثيرا ما أخفت وأظهرت الأسرار أن الحكام في البلدة ومن في الحاميات أو من يفترض بهم الحماة بأنهم اللصوص أو شركاء لهم، أو هم من يوظف اللصوص للقيام بهذه الخدمات. وقد أثبت لهم اللصوص بأنهم خير من يقوم

بحراسة وحماية الأموال والنفوس حين أستخدمهم أهل البلدكرها ليكونوا نظام الأمن في البلدة، وحدث هذا حين تنصلت الدولة من هذا الواجب ورحلت بجنودها في حروب طويلة لحماية نفوذها في أرجاء القارات، فكان تكاثر اللصوص وقطاع الطرق والقتلة في كل مكان واستغلوا كل فرصتهم بخلو الساحة من الجنود أو ضعف فرق الحرس المتبقي، فوجدت الجريمة الحرية الكاملة ليمارس أولادها أنشطتهم في أي وقت وأي مكان. ومن المفارقات أن يلجأ أصحاب المصالح وأهل البلدة إلى هؤلاء اللصوص والمجرمين وأن يستأجروهم للحماية؟

فأصبح لكل عصابة منطقها ومنطقة نفوذ محرمة لحمايتها من العصابات الأخرى مقابل أجور تحصل عليها من المستفيدين وما عداها فهي مناطق مشاعة للمنافسة ولممارسة ما شاءوا من الجرائم وربما تكون في حماية عصابة أخرى، فبدأت من خلال ذلك أول صراعات وحروب النفوذ بين عقداء وعمداء هذه العصابات بمباركة خفية أو معلنة من قادة حاميات الحراسة الضعفاء وجنودها التي تقدم لهم الرشاوى أو الحصص المتفق عليها للحصول على التسهيلات وكذلك الدعم مقابل التغاضي أو الإغماض عن جرائمهم وبذا يتحصل جميع الأطراف التجار وأهل البلدة وعصابات الحماية وقادة الحامية وجنودها على ما يريدون طالما عراب عمليات الابتزاز وهو أول المستفيدين وهم حرس النظام ومنفذي القانون.

سيدفع أهل البلدة والتجار بسعادة ومع الشكر لهذه العصابات لعلمهم بالنتائج والكوارث التي سيتعرضون لها من رجال العصابات علنا أو الجرائم المدبرة الغامضة والإتاوات أصبحت نظامية بمباركة قادة الحرس وجنود الحاميات لأن

العصابات تقدم نظيرها خدمات الأمن الجليلة لهم ولأهل البلدة ومع تظاهرهم بالغباء وبالرضا فالأهم أنهم ضمنوا بذلك ولاء أعدائهم من لصوص في داخل السور لكف أذاهم مع كفهم لخطر أمثالهم من خارج السور وبأقل الخسائر للحصول على أمنية مفقودة وفي هذا استعادة لشيء مما سلب من الشعور بالأمان، ولعلمهم بأنه لم ولن يظهر لهم أي لصوص طالما أن اللصوص أصبحوا الحماة وداخل سور البلدة، ولأن هؤلاء اللصوص وجدوا في هذا مصالح كبيرة ومضمونة ومحمية ولا تعرضهم للمواجهة مع النظام، فأصبحوا هم أكثر حرصا على الحفاظ على هذه المكتسبات بحماية مصادرها وهم التجار ولكن عن غيرهم من اللصوص، وأمسوا لصوصا يمارسون نشاطا مضادا للصوص وتكيف الجميع بهذا الوضع مع الأيام طالما أن الجميع صدق أكذوبته ويتعايش بها وحرصوا على استمرارها حتى تدور الدائرة بما يشاء الله.

ولهذه الفترة من دورات الزمن حكاياتها وإبطالها، وليس عجيبا أنها حدثت في مرحلة فقد فيها هذا المارد الصخري الجبار معظم هيبته وجلاله ويشاهد وهو يقف كجدار من الوهم فاقدا جليل نفعه بفشله في زمن غريب جرده تماما من شرف حماية أهل البلدة من الداخل والخارج أيضا حين امتلكت قدرات السور وقوته فعلا أفراد من لحم ودم، ومن البشر أيضا.

فقد تهيأت الفرص بذكاء جماعات من اللصوص في

تعطيل حصانته وواجباته بالاستيلاء عليها أولا ثم القيام بدوره ودون حاجة فعلية لدوره، والمحزن والمذل أنهم هم من كان السور يقف ضدهم ويحاربهم ويعزلهم عن أهل البلد كلصوص غير مرغوب بهم.

ولكنهم تمكنوا بالذكاء من تطوير آلياتهم في مرحلة من غفلة اجتاحت البلدة بعد ترهل أهلها بالنعم وركونهم للكسل بالتواكل والتهاون ونفذوا من السور

باستغلال الحيلة والظروف ثم على غرة اندلقوا بكثافة إلى داخله وبسطوا سيطرتهم على البوابات والأبراج والجميع وكل شيء، وجعلوا من السور العظيم خادما لحماية مصالحهم في لعبة الدفاع عن البلدة بتوليهم زمام الأمن لأهلها في الداخل، وما هذه إلا حماية لمصالحهم ومكاسبهم في البلدة أولا وعن الطامعين الجدد من اللصوص أمثالهم، وأمست أبوابه والقلاع والحصون هي بيوت إيواء لهؤلاء اللصوص وأوكارا لقيادتهم!

وبداية الحكاية أنه كان قبل ذلك لا يحتاج أهل البلدة وعلى دوام الدهر من داخل السور لأي جهود كبيرة للحماية أو لقوات مقاومة، فهم لا يجدوا المشقات الكثيرة في التصدي لأي لصوص أو مخالفات وتكون من خلال ترابطهم وجهودهم الذاتية بمراقبة الممتلكات والأسواق وبالقليل من الكفاح على الأبراج والبوابات وتركوا لجدران السور مهمات الكفاح التي بالكاد يشعرون بها. ولكن الكارثة أن هذا العدو أصبح اليوم مقيما بينهم في الداخل والسور أصبح كالجثة أو في عداد الأموات.

وحدث هذا في بداية حقبة مضت من الزمن وحينها أصبح القادمون إلى البلدة يلاحظون على أهلها فقدهم بالتدرج لحيويتهم المعهودة ورونق أرواحهم المتألقة بالبهجة وهي من أهم ما كان يميزهم ومصدر توهجهم النابعة منذ القدم من فرط السعادة بحس الأمان بين أذرع السور الجبارة، فاكتست على الدوام وجوههم بالبشاشة وبصفاء البسمة وضحكات الرضا العميقة من أرواح تملأها الطمأنينة والسكينة، ولكن ما جد هو ما ظهر عليهم بدلا عن تلك المحاسن، وهي بدايات لتلبد سحب من الكآبة أخذت تطفو فوق أجواء حيوتهم مع ضباب كثيف مكفهر من الحزن والوجوم، ويلمح في النظرات الغارقة في متاهات من طفرات للحيرة التي تغشاها بظلمة قاتمة من الهموم، وحين يتكلم أحدهم يدرك

السامع وبما يؤكد الشك بما تراه العين، في عمق نبرات أصواتهم المحزونة وصدى كلمات كسيرة تحمل مشاعر أرواح جريحة.

نعم! فأهل البلدة فقدوا فعلا أهم الأساسات العميقة التي كانت تقوم عليها حياتهم بل تأكدوا بشكل قاطع بالانهيارات لأحاسيسهم بتوابع فقد الأمان ومنه كانت تتدفق جميع منابع السعادة التي امتلكوها لقرون، وظلت تفيض عليهم بمشاعر أمان حقيقية خالصة الصدق، وها قد أصبحوا وأمسوا في أيامهم اللاحقة هذه أشد إحساسا بصدق الآلام
مما فقدوا برغم ما يدفعون من أجله أموالا طائلة وبسخاء فهم يظلون يشعرون بأنهم يدفعون أثقالا لشراء دموع خفية ومعها أحمالا من كنوز صحة أنفسهم لتمتلئ الأعماق حتى أقصاها بالقلق والهواجس وشدة الإرهاق وكمخاوف عانى منها أجدادهم القدماء ولكنهم كبحوها بالسور، أما هم والآن يكاد يشعر من يدخل البلدة ويمر بمن يقبع في المتاجر بأنه يسمعهم حقا وهم يتمتمون مع أنفسهم بصوت خفيض حزنا أو سخطا أو بما يتمنون، وربما أن يجدوا يوما حلا أو من يعيد اليهم أمان السور الحقيقي المفقود، حتى وأن أخذ المزيد من باهظ الأثمان من خزائنهم على أن يستعيدوه كما كان لعدة أشهر أو أيام يتلذذوا فيها بذلك الشعور القديم الجميل الهانئ والممتلئ فعلا بحس الأمان الحق وبسعادة المنام في الليالي كما أستغرق فيها أجدادهم بلذة لم يعهدوها سوى في طفولة بعضهم. ربما!

فهم منذ عقود لم يستمتعوا نهارا بأمسية رقيقة تهب عليهم بها نسائم من راحة البال البعيدة عن معاناة الهلع والوساوس، وقد تبين أن ليس لهم الآن من أعداء خارج السور، لأن عدوهم يصبح ويمسي بينهم في داخل السور وفي دواخلهم!

من يصدق أنهم هم الآن الأكثر رعبا في داخل السور من المخاوف التي خارجه!

فهم في توجس آناء الليل والنهار مما قد يجري في أزقة الأسواق وعلى أبواب متاجرهم أو في بيوتهم!

ولكن كيف؟

ومتى كان أو حدث هذا؟

قيل كثرت في زمن السور هذا الحكايات والروايات وقيل أنه مع ازدياد هذه المخاوف أنها كانت فعلا بدأت تتحول إلى صرخات متكررة وقوية من أفراد متضررة من أهل البلدة وأخرى مستنكرة، وتكاثر الشاكون على باب الحامية، وتضاعفت أعدادهم بالانضمام الدائم للكثير من المحتجين وكل يوم، ويقال تراكمت محاضر الشكاة والمدعين على مكاتب قائد الحامية والقضاة ومشايخ المهن وعمد الحارات، وتكدست فوقها أضعافا أخرى من التحقيقات المنتهية "ضد مجهولون"!

وتمر الشهور والسنوات ولم يعرف أو يلقى القبض على هذا المجهول، أو يجدوا غيره أي فاعل لأي جريمة.

وبعد أشهر أخرى تحولت الشكاوى إلى توسل ثم دعاء باكي ثم استسلام خجول برجاء أن يظهر يوما هذا الفاعل، فانحسرت إلى همسات مع النفس، وأخيرا صمت مطبق.

وحقيقة الأمر أن تكاثر المخاوف والشكوى تولدت بعد أن صدر ذات يوم فرمان سلطاني بسحب الأعداد الكبيرة من رجال القوات ورجال الحرس في الحاميات العثمانية، وتوالى سحب الأكثر من الحرس من مواقعهم مع تسخير من تطال أيديهم من رجال وشباب البلدة وما حولها وقيل أن بعضهم أقرب إلى الطفولة، ويقال عنه أنه جهاد أعظم وواجب ديني مقدس في دعم جيوش الدولة في حروبها المندلعة في أرجاء القارات القديمة الثلاث، ثم مرت أشهر وحتى

سنوات ولم يعد للبلاد أو للحماية منهم أحد، وأصاب الشلل معسكرات الحرس والدرك القليلة العدد وفي الحاميات الشبه فارغة، وتفاقم بينهم الكلل والملل، وسيطرت عليهم مشاعر اليأس والشكوك بنيل أي نصر وتقلبوا في حمى الهزيمة وأخذ أكثرهم يحتضر بطاعون الغربة وانقطاع المعاش والمنح، ولذا تراخت قدراتهم عن أداء واجباتهم وقد أصبحت متشعبة وثقيلة، وأكثر إرهاقا بتوالي عشرات ومئات الأخبار عن اعتداءات وسرقات للأموال والبضائع داخل البلدة وبقطع الطرق خارجها والتعرض لقوافل المسافرين وقتل التجار وأخبارا عن قادمين ومغادرين في كل طريق، وبالتأكيد أنه لم يسلم منهم أحد والفاعل لا يزال في أغلبها مجهول حتى وان عرف، فتقاطرت أفواج المستنجدين وتصاعدت صرخات حناجر المستغيثين بالحاميات ولكن أكثرهم وجد أقسى العقاب والجزاء الرادع لكل من تجرأ بشكوى ورفع فيها الصوت، فوجد البعض بعد شكواهم العقوبات في أنفسهم أو حرق متاجرهم أو السرقة للبضائع أو بذبح المواشي والبهائم حتى لم يعد من يجرؤ ويتجاسر أن يقف شاكيا على باب حاكم أو حامية.

ثم لا أحد بعدها وان من الأعيان تذمر من أي وضع أبدا وطرق باب مكتب عظمة النائب السلطاني للقطاع الغربي وهو قائد قوات الحامية "سامي باشا".

ليس سرا ما كان يحدث في تلك الليلة الشتوية الباردة في الزاوية أو الركن القصي من قهوة المعلم "عيد الجحش" المشهورة والتي تتمركز وسط سوق البلد، ولساعات مضت لم تتوقف أو تهدأ للحظة الجلبة الصادرة من الركن المظلم وظل ما ينطلق منه من أصوات مزعجة وأنواع الشتائم البذيئة وأنواع الضحك الصاخب والهستيري، وقد هيمنت في أجواء المقهى والمساحات الواسعة ما بين جدرانه ضجيجه العالي والمعتاد أيضا من جموع الزبائن بما تطلقه

حناجر العشرات من المزارعين والرعاة ومثلهم من الدلالين وسماسرة الخضار وجلابة الأغنام والجمال من البادية والقرى، حيث ترتفع في تارات أصوات نزاع لبعضهم هنا وجدال محتدم هناك حول مبيعات يومهم، ونقاش فيما أصبح لهذا أو على هؤلاء من مكاسب وخسائر، وتعلو فجأة مناوشات تهكم أو نداءات مرحة، ومن يرفع الصوت ببعض التوصيات أو يلفت الانتباه كإعلانات عن بضاعة أو إشهار لترتيبات حول ما وصل وما سيأتي به "الجلابة" إلى أسواق البلدة مع الفجر وما على القوافل من أحمال، وخلالها تستمر وتطغى أصوات فجائية متشنجة عن ثلة من الصبيان والعاملين بعد كدهم وكدحهم النهار في التحميل والنقل وأعمالهم في الورش المختلفة وأفران الفخار والحدادة وغيرها، فتطلق حناجرهم بالحماس الجاد في اللعب بضجيج تشترك فيها أيديهم بصفق الكفوف وبأصابعهم وأصوات عن اللعب على طاولات خشبيه أو معدنية وبحجر الزهر وألعاب بما يشبه لعبة "الضومنة" والشطرنج، ومنهم من يلعب على تراب أرضية المقهى بخطوط مرسومة أو مربعات وحفر في الأرض وتستخدم الحجارة وبعرات الإبل الجافة وغيرها من الألعاب المعروفة في ذلك الزمن.

ويحدث في وقت معين وبجانب من منصة أعداد الشاي والقهوة أن يسمع صوت من يسرد الحكايات ويحلق صوته بحماس وينخفض بحسب أحداث الرواية ويلقي أحيانا أبياتا من الشعر عن مغامرات الفرسان القدماء، وقد ينبري من يغنى بالربابة على ليلاه، وفي جانب ما يرتفع صوت جميل يترنم بجميل الحداء أو بالكسرات الحجازية وينافسه آخر متمكن بأنواع الموال والطرب عبر مخارج الصوت وجميع هؤلاء يريدون أن ينزلوا ما أمكنهم من أثقال العمل

عن أبدانهم وإخراج ما علق في أعماقهم من مخلفات مشاعر الألم والتعب وآثار المشقة عن ظهورهم وأكتافهم.

ولكن ينطلق فجأة ما يلوث كل هذه الأجواء ويزيد من تعكرها والكدر، حين يخترقها من وقت لآخر صخب نشاز يخرس المرح أو يخفيه ببساطة للحظات، إنها أصوات منكرة تبزغ تارة في صراخ وأحيانا بما يشبه عواء الذئاب وكنبح الكلب ويعقبها ضحكات غريبة مفاجئة وتسمع عبارات قبيحة وكلمات مزعجة وربما غير مفهومة وكلها تنبعث من الزاوية المعتمة والتي لا يمكن لأي شخص أن يتجرأ ويلتفت نحوها أو ينظر لما يجري فيها أبدا ومهما حدث.

فالجميع يعلم بأنها أصوات مفتعلة لمجرد إحداث الإزعاج ولإثبات الوجود، وقد تأتي بالمزيد وبمزيج من الأصوات المستفزة كالنهيق والنباح ويتفجر الضحك الجهوري مدويا وينتهي بهتاف هستيري وتصفيق ويعقبه أنواع الردود وتبادل مبتذل القول والشتائم والأشد غرابة أن جميع من في المقهى يعودون سريعا إلى ما كانوا عليه دون مبالاة وبلا تفوه بأي تعليق، ودون مجرد النظر نحو مصدر الأصوات وبالأصح أنهم كالعادة يتحاشون عن عمد الاختلاس بأي نظرة وان لمحة التفات سريعة نحو تلك المغارة المظلمة، فإن لم يكن المانع الخوف الشديد من العاقبة فلشدة المقت والكراهية لما يعشش ويكمن في عمق الظلمة.

وهذه الليلة يلوح فيها خيال لخمسة أشباح وهي تتعمد خلق كل هذا التوتر والإكثار من تحركاتهم ليس لتأكيد رغبتهم البدائية للإعلان عن وجودهم بل للتعبير عن فرحتهم بمناسبة خاصة لديهم، وتبين أنها احتفاء هام للثلاثة المعتادون والدائمون في الموقع بتواجد اثنين من أفراد مجموعتهم العزيزة بعد خروجهما هذا المساء من حبس الحاكم، وبعد أن امضيا واحدة من الفترات

الطويلة وكالعادة بما شاء القضاء ومأمور الحبس من الوقت عقابا لهما على ما يقترفان من جرائم، وهذا الاحتفال بانتهاء أحدث حكم مطول لهما، وقد اعتادا هذا لكثرة ارتكابهم جرائم السرقات وسوء السلوك في حق الناس وفي حق هذه البلدة الآمنة تماما إلا من أمثال هؤلاء الأشقياء وهم كثر خارج جدران الحبس.

وهذا الركن أو المغارة هو حالة وأجواء خاصة تناقض غيرها في باقي المساحات بين جدران القهوة، فعلاوة على التضاد في نوعية أشخاص من يقطنها وفي كل الصفات فهي مشبعة بالعتمة بينما أضواء عموم المقهى مشرقة ومرحة وتعم أغلب الجوانب بما تنشره ضياء الفوانيس الكبيرة والتي ملئت بطونها بالوقود ودعكت كؤوسها الزجاجية بغاية العناية حتى أصبح توهج الضياء وكأنه يرسل من وقود سحري مع ما يتفجر فيه بقوة للتجلي كالاشتعال الفضي الذي يصنعه فحيح شجاع ومتصل لمصباحين من "الأتاريك" يتدليان من سقف المقهى ككواكب مشعة باهرة البريق، انهما يتفجران اشتعالا وبنشاط بامتزاج قوى النار والوقود والهواء المضغوط ووقوعهما في مواضع مناسبة لتغطي معظم المساحات الواسعة بين المدخل والجانب المقابل له والذي تتواجد فيه الأماكن والكراسي الخاصة بالجلوس لأغلب الزبائن المميزين وفيها مساحات الترفيه وملتقيات أصحاب الأعمال، ويتصدر هذه المساحة مناصب المواقد وفوقها "البطة" الكبيرة أو غلاية الماء النحاسية وهي كإبريق عملاق وممتلئة وجاهزة دوما بالماء الفاتر وبجوارها تنتشر أفراخها الصغيرة من أباريق الشاي المختلفة الأحجام مصطفة على موقد واسع ملتهب بالجمر، وفي الخلف وحول كل ذلك جميع ما يحتاجه القهوجي من معدات لإعداد طلبات الزبائن، وأمام هذا مباشرة مجلس

الراوي وصاحب المقهى. وقد زينت جوانب الجدران بالرفوف والكثير من المعلقات.

مع أن المساحة واسعة بساحة المقهى الرئيسية ففي ما بعد صلاة العشاء يكون من الصعب العثور على أشبار من الفراغ للجلوس، فالمكان يمسي مكتملا ومحتلا بزبائن القهوة من "سمّار" أهل البلد وقد أخذوا مجالسهم على كراسي المراكيز الخاصة وفيهم الأغلب من يفترش أرضية المقهى.

بدا هذا المساء في المقهى كغيره من الأمسيات الممتعة المعتادة، التي لابد وأن ينغصها أصوات النعيق النشاز المنطلق كل حين من بطن ظلمة المغارة المحرم النظر اليها ودخول الضياء لتواريها في ركن خلف أعداد من الأعمدة الحجرية البالغة الضخامة والمرتفعة لتحمل عوارض وألواح سميكة وثقيلة من سيقان الأشجار والنخل تبرز في ثقة بسقوف المقهى كونها القوية والقادرة على حمل وتثبيت الطبقات العليا من بيت المعلم "زيد الحمصاني" وأولاده، ويعلوه طابق آخر ودور آخر لبيت أخيه عبد الصمد وبيت أخيه إسماعيل وأولادهما، وهناك تجهيزات أخرى لارتفاع جديد لبيت العريس القادم عدنان الابن الأكبر للمعلم، فتمكنت هذه الأعمدة بطريقة وضعها وانتصابها من حجب معظم أضواء المصابيح وان تسرب بصيص طفيف إلى الزاوية فبالكاد يتضح من البعد شيء عمن يجلس في عتمتها والتي أختارها النزيل الدائم للإقامة الدائمة وهو عميد عصابة يسمى "الذيب بن شباب"!

فهي وكر خاص له ولرفقائه، وقد منع وضع أي أضواء حول زاويته، ولا يشاهد سوى أشباحهم ليلا أو نهارا تلوح في العتمة، وكان هذه الليلة متكئا ممددا ساقية على فراشه وفي مركازه الثابت والمخصص في صدر الزاوية، ويتكئ بكوعه على وسادة ربما الأقل اتساخ عن غيرها من وسائد زبائن القهوة، بينما

يرفع رأسه ونظراته نحو السقف وقد سالت ذوائب من خصلات شعر رأسه الفاحم مسترسلة على الجانب الأيمن بينما استرخت على جانب وجهه وكتفه الأيسر وظهر على ما تسلل من ضوء خافت استطالة جانب وجهه وارتفاع أنفه وجبينه وما تحته من ظلال داكنة تحت امتداد حاجبه الذي يوشك على الاقتران بالآخر وأختفى في الظلال كل أثر لوجنته وعينه إلا حين يستدير برأسه ملتفتا لليسار نحو مصدر رشح الضوء فعن قرب يمكن مشاهدة بقعة دائرية حول عظمة وجنته وهي داكنة اللون عن بقية بشرة الخد وترى هذه غالبا على وجنات أهل البادية لتعرضهم للفح الشمس وتقلبات الجو وهي مثلها على وجنات شعوب الأسكيمو المحترقة بتعرضها للصقيع، أما عيناه فتغوران في ظلمة المحاجر العميقة وفي النور يتجلى في اتساعها لمع بريق الحدقة المتقدة وانها حقا كعين ذئب أينما شخص وفي أي جانب.

وأثناء جلوسه بعد مرور بعض الوقت وهو يشخص الى السقف بدا أن حاجب عينه اليمنى المتسعة أخذ بالارتفاع بينما تقلص لا إراديا جفن عينه الأيسر، وهذه الحالة تصاحبه ودوما عند تعمقه في التفكير الجاد في أمر مهم بأقصى جدية أو في وضع خطير وغالبا عند الغوص في تفاصيل خطة وإعداد الخطوات للقيام بتنفيذ عمل إجرامي بارع، حيث تكون أعماقه حينها في قمة الوعي والتركيز وتظهر منه هذه الحالة أيضا في حالات الغضب والمشاعر العنيفة، حتى أن رؤية مثل هذه العلامة يكون كفيلا بفرض الصمت المطبق على البقية المتواجدة معه مما يدل على تمتعه بينهم بالأهمية أو بزعامة مهيمنة رغم صغر سنه الواضح والذي لم يخفيه تركه للشعيرات البكر الرقيقة لذقنه والعوارض وشعر شاربه الذي مازال يسترسل ناعما وربما منذ بلوغه لم تهذب أي شعرة على وجهه أبدا ولم يمسها مقص أو موسى.

في الحقيقة ربما تجاوز الثانية أو الثالثة والعشرين ولكن تفجرت في قسمات وجهه وكل بدنه أبعاد الرجولة المبكرة على جسده وملامح شخصيته الصلبة والممتلئة بالشجاعة مع قوة نظرات الفطنة، ورغم سكونه الظاهر كشيخ يمسك بالواقع بحكمة ورزانة، إلا أن دواخله تتوقد بالحماس مع ظهور صفات واضحة توحي فيه الحرص والرغبة الملتهبة في تملك المبادرات والسيادة المطلقة في قيادة الأمور، فهو دائم التحرك ولا شعوريا في وضعيات المراقبة وتربص الذئاب لكسب التوقيت والفرص بنجاح!

كما يظهر كل هذا من طريقة تحركه وكلامه مع استخدام

أطرافه وبتوقيت مع أهداف الكلام المختار وبعبارات موجزة ما أمكن ومصحوبة بنظراته الوحشية والصارمة حينا ولكنها تعني قرارات حاسمة، وحتى نظراته المعتادة تشع بالذكاء والفطنة وتتوافق مع ما تحمل من بعد النظر والحصافة المطابقة غالبا متطلبات كل موقف! وقد أفضت في المديح ولم يعرف عنه شيء يعد ولكن يجب أن انهي الإعجاب باقتضاب عن امتلاكه شجاعة مغروسة قادرة على فرض كل ما يريد ومتى شاء وتجدها بفعله وفي نظراته وقوة نبرته، وبما يدل على أنه لم يعرف الخوف أبدا ولم يتذوق يوما طعما لأي هزيمة. وباختباره ظهر تفوق بناء جسمه وتدريبه وعلى عامل الزمن، ليتمتع بطول قامة متناسقة مع تراكمات عضلية توزعت بشمولية جعلته أكثر رشاقة في الحركة وسرعة في المباغتة مع ما ظهر على بقية أتباعه من كبر السن رغم الضخامة في الجسم والقوة في البنية لدى البعض إلا أنه بلا شك ملك الكثير من القدرات والمواهب التي مكنته من التفوق عليهم حين التقى بكل منهم في الأيام الأولى لصداقتهم وأخضع فيهم جميع الكتل العضلية الهائلة وطوع إراداتهم لتكون الى جانبه وفي صالحه، وما يؤكد هذا إجبارهم هذه الساعة على الصمت دون

لفظ، فأمرهم بأن يغلقوا أفواههم فورا لينعم بتفكير هادئ في لحظة سرحان عابرة، فاستيعابهم المسبق والمعرفة التامة لقدراته وما يريد وما لا يريد يتم بمجرد اللمح لمظهر أو تعبير على وجهه أو إشارة إصبع دون الحاجة لإصدار أوامر صوتية، لهذا أيضا أصبح المؤهل البارز للجلوس على سريره الخشبي كعرش حاكم ومحتلا صدر المكان لمجلس المغارة، وأن يجعل إلى اليسار منه على امتداد الجدار مركاز ينتصب فيه ذلك الرجل الضخم الجسم المدعو "زعل بن شمروخ"!

وزعل هذا هو رجل جبار في الخامسة والأربعين من العمر ويبدو أنه أضخم الجميع جسما والأقوى بنية، ولكن ليس في عيني ذلك الشاب الصغير الملقب "الذيب شباب"، ولا يعرف بالتحديد إن كان هذا اسمه الحقيقي ولكنه يرتبط فعلا بوشيجة قربى في أحد الأجداد مع "عميد" الجماعة الشاب الصغير، وهذا الذئب أدرك أن هذا الجسم الضخم يحمل في الأعلى كرة كبيرة مجوفة وفارغة من مقومات التفكير، وإنها أعجز من أن تدير أو تتحكم بما تحتها من الموارد العضلية الضخمة، فكان من السهل عليه أن يمتلكها ويجعلها القوة العمياء الجبارة المساندة له، والعجيب أنه مع غبائه الفاحش وبلاهته فانه مازال يتمتع بميزة عن أذكياء في هذه المجموعة إذ أنه لم يدخل حبس الحاكم أو الحامية أبدا وحتى هذه الليلة، وربما يعود لأنه الأكثر طاعة والتزاما بتعليمات العميد الشاب الذكي ولا يحسن شيئا سوى التقيد بتنفيذ توجيهاته، وبهذا الإخلاص والتبعية العمياء كسب العديد من المزايا، وان شاركه شرف نظافة الصحيفة من الجرائم ذك الرجل الجالس على المركاز الآخر إلى جواره، وهو الرجل الغامض تماما، فهو كثير الصمت وغريب الأطوار ويسمى " شايش أبو دمّه" والأصح أبو الدم!

وهو يكره أن يدعى بهذا الاسم محرفا ويثور فورا مصححا هذا الخطأ بغضب:

هيـا! قـلها: شايش أبو الدّم!

ولا عاد تغلط مرة ثانية!

ومؤكد أنه لا يمكن أن يكون أبا لولد حقيقي مسماه الدّم

ولا يعرف أبدا سرّ ذلك "الدم" أو سببا لهذا الاسم الملتصق به أو المفضل، كالجهل به وبشخصيته التي لم يعرف عنها سوى انتمائه لقبيلة في الشمال فقط. لأنه دائم التكتم على أي تفاصيل عن حياته فلم يطلع أحدا على سر انفصاله أو هروبه عن قبيلته رغم مهارته بالعوم في بحر الحياة حتى بلوغه الخمسين من العمر ومحتفظا بفتوة الشباب وبشجاعة متميزة بجسد مدعوم بقوة عضلية رهيبة تصاحب نظرات ذكية وصارمة ومخيفة، ولكن عقليته تتحكم في كل قواه وشخصيته متزنة وتضبطها بالحكمة وان لم يسبر غور شجاعته لمقدرته على التحكم بعواطفه وكبح تهور عضلاته المرعبة وفي المقدمة ضبطه لعضلات لسانه كذراعيه، وقد يظهر بوضوح أن التحاقه بهذه العصابة أو مشاركته لهم في الجريمة والسرقة لم يكن محبـة في جني المال. ربما يعود الى شغف أعماقه بحب البحث عن القتل فقط، أو التمتع بممارسة القتال والرغبة في إظهار الشجاعة في النزال الحقيقي والمواجهات.

أما من يجلس في المركاز المقابلة لهذين الرجلين المريعين فهما صاحبا الشرف بهذا الاحتفال وهما حتما باعثا الحياة والمرح ومصدر الإزعاج الحيواني في الركن المظلم حتى وان كانت مناسبة الحفل أكثر من معتادة بالنسبة للجميع بالأخص لهذين المحتفى بهما لأنهما يحتكران مقعدان شبه دائمين في حبس الحاكم، ومنها تظهر بوضوح أهم الخصائص الغير إيجابية في شخصيتيهما ومن أهمها بالتأكيد التفريط والإفراط في الاندفاع المتهور

واللامبالاة بالنتائج والعواقب وبها يحدث التفريط التام وعدم الحذر ومن ثم تستقبل منهما الكوارث ويعم الفساد في كل شيء!

ويأتي نصرفهما بهذه الرعونة الى عدم قدرتهما التكيف للتقيد بخطط وتوجيهات العميد، ويرجع هذا لتركيبة شخصيتهما الغير متزنة والمندفعة لحبهما للشجاعة ويمكن القول أيضا تشربهما بالجرأة الغير منضبطة!

فهما يمتلكان شجاعة مفرطة حقا، إذ يصاحبها موت حقيقي لمشاعر الخوف والتحسب لأبسط سبل السلامة، فيواجهان العواقب بما يمتلكانه من قوة عزيمة وجلد في الصبر على أشد المكاره يعقبها مقدرة على سرعة النسيان ودفن أنواع الهموم في العدم وفورا وهي حية، كما يعرف عنهما حبهما للعبث والمرح المتواصل، فلا يملكان من الأحزان سوى الضحك واللهو الصاخب، ورؤية الابتسامات العالقة دوما على شفتيهما تدفع المرء لأن يقسم بأنهما لم يعرفا السجون أو يتذوقا يوما طعما للهموم والأحزان، ولم تزر عيناهما أبدا سوى المشاهد السارة من أصناف السعادة، مع أنهما يعيشان عكس ذلك ونتائج شجاعتهما تكون دوما في الاتجاه والهدف الخاطئ، ومن أعجب وأهم وأخطر المميزات الفريدة في حياتهما هي التشابه الدقيق بينهما في السمات والشكل والمظهر العام!

فهما توأمان ومتطابقان في كل تفاصيل الوجه والملامح والطول وتقارب شكل الجسم ولا يظهر بينهما الفارق في السن وهو يصل إلى سنتين وأشهر، وهما في الحقيقة أخوان فعلا ولكن من أب واحد ومن بطني والدتين مختلفتين، والأعجب أن هذا التشابه الكبير والتناغم التام في الشكل وفي مجمل سلوكهما العام ينقلب إلى النقيض وفي أهم وأحرج الأوقات، إذ يكمن هذا في ردة فعل مختلفة وعكسية تماما بينهما في أسوأ المواقف!

فالأخ الأكبر واسمه "شامان"، يكون الأهدأ مزاجا والأكثر ذكاء ودهاء، وكل ذلك يتبخر أو ينحرف في أغلب المواقف ولكن عن قصد منه، حيث غلبة العاطفة والحنان الجياش ونحو أخيه فقط هي ما يسيطر عليه وفي تفجر الموقف لا يفكر أبدا بشيء سوى سلامه أخيه وحمايته، ففي اللحظات التي يمكن أن تخلف أو تلحق أي ضرر بأخيه يتعمد أن يتخلى تماما عن ملكة الهدوء والحس بالذكاء لينقذ أخاه وأن يشاركه في المصير!

وهو ما يتناقض مع سلوك الأخ الأصغر المسمى "شويمان" والذي يمتلك إرادة منفلتة لا تعرف الانضباط فيتصرف بلا اتزان، ويقوم بأعمال متهورة وغبية دون أن يقيم وزنا للعواقب، كما تزعجه لحظات الهدوء والسكينة ويصيبه القلق والتوتر فيعمد الى الجلبة وبأي وسيلة دونما اكتراث للآخرين أو للعواقب!

لذا تجده دائم الحركة والتصرف بعشوائية بدون تفكير بالنتائج، وكثيرا ما يدفعه السكون للتوتر ويقوم غالبا بالسرقة في طيش أو علنا ويبحث عن العراك مع أي إنسان، وان لم يجد فمع أي كائن من مخلوقات الله على الأرض حيث يطارد القطط والكلاب أو يقذف سكون أي شيء بالحجارة.

أما ما يتفقان فيه سلوكيا ويتحكم فيهما وبصفاتهما مع بقية القواسم المشتركة هي تلك الجسارة والشجاعة، وفي اتخاذ قرار الحسم المتشابه في المواقف الطارئة وبأي نتيجة وفورا، فتكون فيها نتائج قراراتهما الحاسمة غالبا شجاعة وتشعرهما معا بالرضا وان كانت تنتهي بكوارث والى ما لا يحمد عقباه، لأن الأهم هو متعة التنفيذ والقيام بهذا، وفي التماثل والتناقض أو التماثل المتناقض يكمن سر التصاقهما وتواجدهما الدائم في ضيافة حبس الحاكم.

فالأحداث تنتهي دوما إلى ذلك المكان بعد أن يندفع الأخ "شويمان" ويقوم بعمل طائش كسرقة متهورة لبضاعة أو في سلب مال أي رجل بالهجوم عليه

علنا ثم لا يكتفي غالبا بالنجاح بالفوز بالغنيمة ويكتفي بأخذ المال، بل ينهار ويندفع باطشا بالضحية ويزداد عنفا كلما استمرت الضحية بالصراخ أو طلب النجدة منزلا بها أشد العقوبة والإصابات فيزداد تجمع الناس حوله وتهم به فيهرب، وتحمل بعدها الضحية للحاكم وكالمعتاد يقبض عليه بعد لحظات والعجيب لا يجد الشهود أي صعوبة وحرج أو أي شك بتعرفهم على الجاني ولكن يظهر لهم فجأة الأخ الآخر شامان ويفسد المحاكمة، وحدث مرارا أن يقتحم "شامان" الجموع أو مجلس القاضي فيعلن بأنه الفاعل الحقيقي وليس "شويمان" ويكذبه الآخر، فيرتج على الشهود وتصيبهم الحيرة، ويظل كل من الأخوين يصر ويقسم بأنه هو الفاعل الحقيقي ولا يتنازل أي منهما عن موقفه أبدا!

فشويمان أو شامان لا يقولا الحق ولكن لينقذ كل منهما أخاه البريء في نظره والآخر لمحبته لأخيه بمحاولات الاعتراف لإنقاذه حقا وأن يسجن هو بدلا عن.

وكالمعتاد في كل نهاية يثير موقفهما جنون الحاكم وحنق القاضي فيحبسانهما معا ويعتبران هذا عدلا وكيدا، فهما جناة باعترافيهما، وكمحتالين على العدالة بالتزييف تضاعف لهما العقوبة ولتعمدهما بهذا التصرف أهانه القضاء ينالا عقوبات إضافية، ولكن يتفاجأ القاضي أو الحاكم والجميع بعد الحكم بضحك الأخوين بسعادة وهما يهنئان بعضهما ويدخلان السجن معا في سرور.

إن شامان لن يترك أبدا أخاه شويمان ليدخل السجن وحيدا، لأنه أيضا لن يطق العيش وحيدا وبعيدا عنه، وسيفضل البقاء معه دائما في أي مكان من الحياة وإن يكن في السجن أو القبر. ففي هذا المكان هما على الدوام سعيدان كسعادتهما في ليلتهما هذه حين خرجا معا، وهما يعيشان الليلة أحد أفراحهم

الصاخبة مع الصحبة في الزاوية المظلمة في طرف المقهى وقد يعودا غدا للسجن، من يدري؟

بالعودة مرة أخرى إلى لحظة الصمت المطبقة اختياريا على العميد الذيب بن شباب وفرضها بطريقته على الجمع وربما وجدها بعضهم فرصة نادرة ليعود بروحه وذاكرته بقلبه أو عقله إلى الماضي أو إلى حيث الديار أو الأحبة، وربما قابل البعض خلالها كوابيس جرائمهم التي جعلتهم صعاليكا في هذه الأرض ينزووا في ركن مظلم كالمغارة وفي مقهى في أرض بعيدة عن كل أحبابهم والديار، ولاشك أن حدثا مفاجئا أنقذهم من كوابيسهم وتفجر ألام جراحهم الحبيسة في القفزة الغريبة للعميد الذيب شباب للجلوس مبتسما خارجا من وضعه المتحجر فوق المركاز بعد أن حلق طويلا بأفكاره في أبعاد مجهولة لا يعرفها إلا هو والذي خلقه، ولم تك القفزة اعتيادية أو صامتة ولكنها تحمل مشاعر فرح بالنصر، وكالتي أطلقها من سكن أيضا في صمت منغمسا في مغطس حمام لمدة طويلة وقد أنهكه جمع كل نقطة ماء كانت تتدفق من المغطس، لتدوي منه صرخته المشهورة والتي نطق بمثلها هذا الشاب الحالم قائلا وبلغته:

– لقيتـها! لقيتـها! عشت والله يا الذيب!

ليهتف الجميع:

خير يا العميـد؟

ويضيف زعـل ابن عم العميد ما يراه واجبه بمناسبة أو بغير مناسبة وبأي عبارات:

خير يا ولـد عمي؟ يا اللي ما يتعبك الصيد وانت

الصيد ينصـاك منهان، حتى وأنت قاعد في

محلك!

الذي كان من الممكن ملاحظته في المقهى طوال الوقت وقبل رحلة العميد الفكرية متكئا ومتعمقا في أدغال خياله، أن أمورا غامضة كانت تجري في القهوة بسلاسة في تحركات مكوكية رتيبة في أطرافها من جوانب القهوة وبين الزاوية المعتمة من جانب آخر، وهي في ظاهرها تحمل البساطة ولكنها في الحقيقة كانت رحلات قديمة، ومرسومة سلفا وبإتقان في رأس العميد ويتحرك فيها أشخاصا معلومة تحمل في صمت أو بالخفاء إرساليات محددة عبارة عن حمولات محسوبة ومبرمجة موضوعة في أكياس وأقفاص وجرار من الفخار ثم تنزل في مكان داخل ذلك الكهف أو فوق "الطربيزات" وفي كل الأمكنة الشاغرة حولها ثم ينسحب واضعوها بهدوء من حيث أتوا دون أن ينبسوا لأصحاب المغارة أو يهمسوا وقد تركوا خلفهم الكثير من السلال المليئة بالفواكه والخضار وأقفاص من الدواجن أو البيض، وأحمال من البلح وعبوات التمر وجرارا مما تجود به الأنعام من الزبد والسمن وأكياس الاقط أو لفائف مفارش ومنسوجات من الصوف، وتخللت ذلك أيضا جولات سريعة وخفيفة الحمولة قام بها المعلم القهوجي كوسيط أو احد الصبيان وهم يحملون في كل مرة وفي غير سرية صرة صغيرة من الجلد أو القماش أو في باطن الكف ويتجهوا بها رأسا إلى العميد الذيب بن شباب ومعها ابتسامات وهمسات سريعة، والجميع يعلم بأنها ليست إعانات في أتراح ولا مشاركة ودية في أفراح أصحاب المغارة للتهنئة بعودة الولدين البارين والغائبين منذ مدة بمجاهل أقبية سجن الحاكم، إنما هي عمليات مدروسة ومنظمة لدفع الرسوم التي يديرها وباقتدار وبحرص بالغ الدقة ذلك الذئب المتربص في حذر بينما يظهر عليه التجاهل والملل وهو يضطجع ويتقلب على مركازه في عمق المغارة، فلديه الثقة التامة بأن كل شيء يظل يسير وبالانتظام والسرعة المحددة دون إبطاء، بل من

يتقدمون بها هم الأكثر حرصا على وصولهم في الوقت المناسب وقبل أن يفكر ويضطر هذا الذئب لتغيير مجلسه أو ينزل بأحد قدميه عن عرشه أو مركازه للوقوف وهذا يعني لهم غضب الذئب!

أما ما بعد ذلك فالجميع يعرف بالنتائج والتي خبروها ولا يتمنونها أبدا، وما هي إلا همسات في أذن أحد من رجاله وهي أوامر للتنفيذ وعلى إثرها بلحظات ترتفع الأصوات في الخارج ونعلن أصوات أكثر من منادي عن فقد أو تشتت الدواب واختفاء الضأن والماعز من أماكن جمعها وفي الحظائر وكل ما كان في المهاجع وما حولها وما كان فوق ظهور قوافل الجمال والبغال والحمير، ثم يكتشف المنادون وغيرهم لاحقا إن المختفي حقا ما هو إلا كل دابة وكل حامل مع المحمول، أي الجمل بما حمل، وحتى الذي لم يحمل فقد سبق كل ما حمل، وبالتأكيد لن يكون هناك لهذا فاعل أبدا!

وقد يعثر البعض على بعض أغنامه أو دابته وكأن كل واحدة اختصت لنفسها مكانا لإنهاء حياتها وبيدها في بركة خاصة بها واستمتعت فيها غرقا بدمائها، وسيحدث مثل هذا لكل الأحمال من أقفاص الدواجن والجرار والسلال، والكل سيلقى الحتف المناسب.

وليس بعد ذلك حاجة للتساؤل كيف؟

ولن يجرؤ أحد على القول لماذا؟

لهذا كانت تحدث السلاسة في جميع الإرساليات وفي منتهى السرعة والصمت من أجل السلامة وللجميع، ويمكن حمل جميع أنواع الابتسامات مهما تكن صفراء أو عن بعد ويوجه المطلوب بالتمام لذلك الشاب الصغير الشديد الوسامة وطالما هو جالس في مضجعه لم يتحرك عن مركازه أنملة، ودون أن يطلب منهم هذا أو ينبس!

وحتما ستؤمن بفكرة:

" أن معظم العمل المهم والخطير قد لا يحدثه إلا

صغير! أو الشيء الصغير!

بينما سيفشل فيه الكبير! أو كل كبير!"

ليس أدل على صدق تلك العبارة هو ما وراء الحقير الصغير الصامت فيما سيعرف بعد عن المشهد القصير الذي حدث قبل أشهر، ولم يشهدَ على ذلك سوى الله وتلك الليلة المظلمة فقط، وهي التي كانت ترى تسلل الشاب البدوي الصغير القليل الظهور نهارا والنادر الكلام وقد أجلسته الأقدار داخل معسكر الحامية بل وفي الغرفة الخاصة بالقائد العظيم للحاميات وحاكم القطاع، وهو عظمة "سراج باشا"!

كان يجلس وأكتافه العريضة وصدره الضخم قد أخفت خلفها كل أثر للكرسي الكبير الوثير، فتوارت مسندة الظهر العالية مع حوافها العريضة بنقوشها الذهبية البديعة ولم يتبق ما يشاهد منه مع معظم خلفية المكتب الواسعة غير هيكل ورأس القائد الضخمة وشاربه الطويل المعقوف الطرفين في حلقتين قرب صدغيه، وتحجب بين فترة وأخرى كل المشهد سحب بيضاء تندفع بكثافة ووداعة من فم القائد وتنتشر اثر عدد متواتر من شفط ونفخ للهواء من الطرف الذهبي للخرطوم الطويل والمتصل بأرجيلة مذهبة باذخة النقوش والزخارف تماهي فخامة وبهاء الخلفية الحقيقية للجدار الخلفي حيث أنتصب بشموخ على الجانبين حاملا راية تعلو كل منهما حربة ذهبية عملاقة وخلفهما وعلى الجانبين بريق لمجموعات كبيرة ونادرة من أنواع الأسلحة المرصعة بكل الكنوز من سيوف وخناجر وأسلحة منوعة لا يعرفها الشاب مطلقا، ثبتت على الجدران

بخلفيات رائعة وحوت الكثير من التحف واللوحات والمتاريس والتماثيل وأشياء لم ترها عيون أغلب البشر، ثم ما لاح أمام عينيه فيمن على المكتب!

شاهد عينين ترصدانه من بين غيوم الدخان وكان القائد ينظر الى الشاب في صمت وبابتسامات متقلبة تحمل مشاعر متضاربة بين الاحتقار والتهكم ثم التعجب فالإعجاب!

فالجسم الضئيل الحجم القذر هو الأقل قيمة بالنسبة إليه وهو أحقر وأتفه من ثمن أي قطعة صغيرة في هذا المكتب، حتى السجادة الحريرية الفارسية البهيجة الألوان والخاصة بمسح الأقدام هي تحفة باهظة الثمن لا تقارن

مع العشرات من هذا اللص الوغد.

وبالمقابل كان هذا الضئيل مازال تحت عنف الدهشة بأعاجيب ما رأت عيناه من مشاهد المتحف العجيبة وما أحتوى من روائع تزيغ الأبصار، فالموجودات ربما هي الأغلى عن مثلها في العالم إن كان لها مثيل بين كنوز وتحف مرصعة بالنفائس وبالجواهر، وفي الحقيقة لم تتجاوز دهشته بها سوى فترة ذرع فيها بصره كل الاتجاهات من حوله في المكان والمحتويات والتفاصيل ثم تخلت سريعا عن كل دهشتها بالجميع!

فبصيرته هبت لتكبح في عينيه نظرات الفضول واللهفة ليرى بعقله ما أستجد فيه من الأفكار، فما سبق أن رآه ما هو إلا مجرد أجزاء ضئيلة من مكونات هالة حقيقية سحرت قلبه في الحقيقة!

فسكنت نظراته وعادت لتستقر بثبات في مكان واحد، كان بالقرب من قدميه، ولكن عقله غاص كعادته في مثل هذه المواقف في أعماق عجيبة لتظهر على حاجبيه وعينيه تلك التقلصات اللاإرادية وتنطلق في أعماقه موجات ثائرة في

تسارع تحمل الطموح والآمال والرغبة في صنع المغامرة العظمى التي طالما حلم بها مع نصر مؤكد دون تفريط بالحياة الثمينة.

وبدأت مهمات الذكاء تعد وترسم الأفكار ليرتبها عقله في لحظات مناسبة قادمة. وتحاشا النظر في عيني القائد لإحساسه الفطري بخطورتهما فأتخذ احتياطاته بالخبرة وألتفت نحو ما قبع في الطرف الأيمن من المكتب الهائل المترامي الأبعاد وتوقف طويلا متعجبا ومفكرا ثم عاد ليخطف نظرة جس خاطفة للتأكيد من توقعات الإنذار الداخلي وتفحص وجه القائد الجاثم على مكتبه المهيب بعظمة فخامته ولكنها ارتدت سريعا مغمضة كردة فعل عفوية عن قوة ضوء ساطع من عين القائد كاد ينفذ في رأسه. عاد من جديد للتفكر فيما سبق أن رآه على المكتب وهذا في ثواني سريعة ولكنه رأى خلالها وبالتفصيل كل ما فجر في أعماقه قوة إثارة بما شاهد حوله من دقة في صنع هذا التكامل العبقري الذي يحدث السحر والانبهار ويخلق الفتنة برؤية الجمال، وعرضت له البصيرة وضوح ما وراء البريق وتناغم الهالات التي تذيب كل قسوة وتغتال كل أثر للقوة والوحشية حتى يتجلى عنها رؤية بهاء العظمة في عرض يضم أنواع أسلحة القتل الفتاكة، فتحولها الى مشاهد بديعة مشعة بطغيان جمال العنف المتوحش!

وكأن القائد الخطير الخبير يقرأ في عيني الشاب هذه التأثيرات في صمت وربما توصل الى أشياء كثيرة وبأدق التفاصيل في شخصية هذا الكائن الملتصق بطرف مكتبه، وقد تفوق ما جال في فكر ذلك الشاب، فهو ساحر أخترق فيه بعض الأستار والأسرار حتى النقطة المعينة والمحددة من زاوية المستقبل المجهول ولو وصل اليها لتسببت بانبهاره رعبا ثم انهياره، والذئب الذكي يبرع في المراوغة والتخفي والرصد الذكي فكان يسارع بإغلاق المنافذ الى عقله

وأفكاره فورا مظهرا صفة غباء تفوت على عين الباشا المتمرسة في فك شفرات العقل وبما فيه من أسرار وشرور كامنة في مخابئها.

حاول الباشا أن يلج في عمق عيني الشاب الذئب ويجذب ما يتربص فيها بصفاء زرقة عينيه ومياهها السحرية، إلا أن تعود عيون الذيب على المكوث والتعايش في شدة العتمة والظلمة في الزاوية وتمرس الخداع والمفاجأة والسير في حالك ليالي المغامرات لم تمكن الباشا من اختراقها والتوغل الى أعماقه، فسوادها الذي تعود المراوغة كان يجيد التحكم في غلق المنافذ على ما خلفها من هام الأسرار حتى استحال على الباشا قارئ الأفكار الإحاطة أو التخمين بما تركت له من التساؤلات، والتي لا يجد فيما يصل اليه إجابات، ففكر بأن يحصل عليها لفظا بكثرة الحوار بعد أن تأكد له صعوبة الوصول اليها من خلال عينين تغذت على إخفاء حقائق ومعاني تستتر وتتخفي في الليالي المظلمة، وكم في الليالي من عظيم الأسرار، ولا شك قد أمسى مخزون الذيب شباب منها متراكما بامتداد عمر ليالي الصحاري المتوالي وشدة رياحها التي تزمجر حاملة عواء الذئاب الباكية من الجوع، ولم يكن الباشا خبيرا ناجحا بمعرفة ما في ظلمة الليال الصحراوية!

أما هذا السر الجديد في ليلة الذئب الصغير السن وعلى مسارات حياته العجيبة والتي بدأت فعلا حين قدم للمكان الذي نظر فيها وعن قرب الى بؤرة الضوء فأصابته الدهشة وتساءل ووجد إجابات سريعة عن ما وراء أسرار الضياء التي يراها متلألئة أمامه وحوله في المكتب العظيم، وكيف تصنعها معجزة ما على الجانب الموالي من سطح مكتب الأبنوس اللامع المترامي حيث يلقيها مصباح عملاق شديد التوهج وكأنه يقول:

أنا في الحقيقة من يحمل الهيبة وأنا من يلقي بها وبهذا البهاء والأناقة على وجه القائد وعلى جميع الجمال في كل ما حوله من الأشياء فتصبح أمامك كنوزا مبهره، ولا يمكن أن ترى منها ما يبهر في أي شيء بدوني حتى ضياء هذا الباشا العظيم!

وبلا شك أعجب!

وتفكر في كيفية الصنع ونبوغ الابتكار في مثله وعرف السر في شدة بريق الكأس البلورية الضخمة بينما تسكب الأنوار فتنطلق الأضواء هائلة إلى كل مكان فتشاهد العيون انعكاساتها جمالا في كل ما تقع عليه، هي تعود منعكسة في سواد العيون فترى كحقيقة كل شيء أنوارا غاية في الإبهار، ويمكن أن تتخيل عليها في تراكب الوميض وانعكاس الإشعاعات بريق الألماس كوهج النجوم المتلألئة في لياليه الصحراوية الشتوية النقية الصفاء.

وفيما كان يشاهد الشاب البدوي الجاهل انبعاث وانتشار

واستعراضات الضياء في أجواء المكتب لتكون خالصة الوفاء لمن يجلس فيه وان هو كلب أجرب، تراءت له مخيلته وكأنه يدخل الى روضة مفروشة بالخضرة يتوسط منها عرش ذهبي جيء به من بلاط السلطان العظيم محمولا على أجنحة طاووس جميل ولم يشاهد أحدا يجلس فيه ليحكم من يعيش في التخوم والواحات وعلى امتداد صحراء عظيمة، وكان هو الوحيد الذي يقف ويشاهد هذا؟

وحدث تاليا الكثير من مثل هذه الزيارات الليلية السرية الغامضة، وأصبحت رتيبة ومبرمجة في الوقت الذي تلا مغادرة معظم القوات السلطانية بأغلب الجنود وبجميع رجال الحاميات ودرك الحراسات الموزعة في أرجاء القلاع من جزيرة العربية فتفجرت على السطح بؤر الشر وكمنت في الأودية والمسالك

وداخل البلدان المسورة، وتكاثرت وتكررت البلاغات عن العنف بالقتل والسرقات وأخبار عن العديد من أنواع الجرائم، ومنها ما يحدث داخل السور الطائف بهذه البلدة، وأصبح ما يحدث ويشاهد من جرائم وشرور يسجل ويبقى كأحداث غامضة كما يظل مرتكبيها مجهولون أو بلا حسيب، فقائد الحامية القوي ومن بقى معه من الجنود والحرس عددهم في بعض النقاط قد لا يتجاوز أصابع اليدين وهم دوما لا يجدوا أي متهم في أكبر وأشهر القضايا، ثم أصبحت شكاوي الاعتداء العيان البيان أيضا تغلف بالغموض ولا يتعرض مرتكبها لأي عقاب إما بسبب إهمال غريب للشكاوي أو لسرعة تراجع أصحابها عن شكواهم وتبدو غير مفهومة!

وما هي إلا أشهر حتى اختفت البلاغات تماما وهذا ليس نتيجة لاستتباب الأمن وإنما اختفت الشكاوى لاختفاء الشكاة أو إحجامهم عن تقديم أي شكوى!

ربما يئسوا تماما لعدم جدواها والقائد وجنوده ككل مرة لا يجدون أي متهم أو لا يثبت عندهم أي دليل، والأغرب أنه لم يرتبط اسم هذا الذئب الماكر بأي بلاغ أو جريمة بينما يرونه يغادر مواقعها في شمس الضحى وفي رابعة

النهار ويداه مخضبة بدمائها وحيث كان يحدث بعد كل استدعاء له أو لأحد أعوانه لمكتب القائد أن يخرج منه سريعا مبتسم الوجه، وتراه عيون أهل البلدة في كل خروج أكبر قوة وأضخم حجما وأفتك جرما مما كان عليه قبل كل دخول.

وللبداية السابقة سابقة سرية أيضا كانت في ليلة شبيهة بمشاهد الليلة الظلماء وفيها نفس الشاب يجلس في نفس المكتب المعروف على نفس الكرسي الذي بالكاد أصبح يتسع له، لأنه لم يعد بالنسبة اليه متراميا كأول مرة شعر في نفسه بأنه جرم صغير حقير، فهو في هذه الليلة لم يعد بحاجة أيضا للتظاهر واتقان

مشاهد السذاجة ونظرات البراءة، ففي أعماقه شعور بأنه أصبح أخيرا في خط موازٍ للعين التي ينظر اليها أمامه وهي ليست سوى نظرات قائد عظيم وصاحب هيبة سلطانية فقط، وان أكتشف الشاب بأن صاحبها كان يوما هو صاحب الخبرة العريضة في الجريمة ومطاردة المجرمين وتذليلهم في العاصمة ثم في مدن كبرى للدولة في أسيا وأوروبا ولأسباب متكررة عرفها أصبح يرسل الى البلاد النائية من الإمبراطورية وبرغم مكانة أسرته وعلاقتها الوثيقة بالبلاط السلطاني وهذا ما جعلها الأسهل عقوبات.

والشاب لم يعد يهتم بمحاولة للتظاهر وتواجه من عين

القائد الخبيرة بالاستنكار والسخرية فقد نجح فعلا بتغيير نظرات الباشا حتى لم تعد هذه الليلة تحمل له أي استهجان كسابق الليالي، بل جعلهما تتراقصان له ابتهاجا بما تمتلئان من مشاعر الإعجاب بهذا الشاب البدوي البارع، وتشبعت أعماقه وكم فاضت على شفتيه ابتسامات مع عبارات الثناء، حتى أن هذه النشوة التي تملأ قلب الباشا تشعبت في جوانب القصر ولم يصب بدهشة أو ردة الفعل العنيفة المعتادة له عندما سمع قبل ساعة وما أحس به من خزي في أصوات البعض من جنوده بل ومن حارسه الشخصي الموثوق حينها كان يجلس منفردا في مكتبه والتقطت أذناه كلماتهم وهتافهم المبتهج في الأروقة وبلا أدنى انضباط!

سمعهم يغرقون الزائر القادم وكان متوقعا، وكانت التحيات تتطاير مرحا مهذبة ومعطرة بأنواع ما يقال من "التشكرات" الغزيرة وبأكثر وأجمل من التي ينتزعها منهم بالسلطان!

فحارسه الشخصي أندفع مخترقا كل البروتوكولات دون أن يطرق الباب ويدخل مندفعا بخطوات سريعة ويقف أمامه يلاحق أنفاسه كالتعب أو من السعادة التي

يرقص بها قلبه وتشع بريقا في عينيه وبرعشات على شفتيه حتى تطاير قطرها من لسانه:

– تحياتنا! يا صاحب عالي المقام باشا!

– سيدي الباشا! نسألكم العفو ..

حضرته "السبع "بيك"!

صاحب المكارم!

بانتظار فضل كرم عالي مقامكم، وأمركم بالسماح له بالدخول ...

لتدوي في جوانب المكتب المترامي ضحكة مقام الباشا التي عجز عن كتمانها وان تمكن من حبس ردة فعله تجاه هفوات جنوده وخطيئة حارسه الشخصي الفادحة نظاما وبسبب ما حمله الموقف من أمور هامة وكان شعر بها وعاشها من خلال خبرته في نفسه وتاريخه ورأى ببعد نظره أنها من نوع "شر البلية ما يضحك"، فما سمعه في نبرات كلمات الجنود مع ما رآه من ملامح على وجه الحارس ولهفته ولهاثه واختراقه برعونة لباب المكتب ليس إلا سلطان رنين الذهب!

ليقف الباشا على قوة السحر في جبروت الذكاء حين يعري كل محذور ببساطة ويوظف الغباء ويجند الآخرين بخاصة الأذكياء بالتشكك ثم يسخرهم كعناصر وبيادق يحركها كأشياء خاصة، وكيف يزرع بنفس البساطة في ما شاء ومتى شاء واستغلال ما في خواص وعيوب الأشياء والناس بالاستدراج واستدراج جميع الشهوات كإشباع الطمع بالمال حتى الجشع، حتى أنه سمع رنين الريالات العصملية في صوت جنوده خارج المكتب وسمع قوة صليلها يخرج من فم حارسه المخلص في حماسته وارتباكه، ولكنه لم يعلق على الأمر رغم أنه شاهد لا حقا خجل الفضيحة يكسو وجه حارسه المفضل الشديد الذكاء مغلفا بالندم

عما أدرك أن ذكاءه خانه هذه المرة وقد أستغفل من قبل ابن البادية الجاهل، وهز القائد رأسه بالقبول ثم طلب من حارسه بالإشارة أن يدخل عليه الزائر.

وولج الذئب برأسه أولا مبتسما ونظراته الحذرة تخطف جولات سريعة لكل الزوايا وألقي بتحية خاصة على من أحب في سره وهو عظمة باب المصباح العالي المتألق، ثم أدخل بقية جسمه وتقدم بخطوات واثقة رزينة وعيناه تقوم بمناورات الكر والفر عن بعد مع عيني القائد الذي طلب منه بالإشارة وبابتسام أن يجلس على الكرسي المعتاد.

جلس الشاب "الذيب شباب"، وخلال صمت الباشا الباسم كان الشاب أكمل كل الرسائل الحركية المشفرة والضغط المعتاد بالنظر في عمق عيني القائد ثم تظاهر بأنه تذكر الشيء المهم الذي جاء من أجله ليرجع بظهره إلى مسند الظهر للكرسي وأدخل يده في فتحة جيب صدر قميصه وأخرج كيسا جديدا من القماش وباللون الأزرق الفاقع ويختلف عما سبق من الألوان في الحجم وفي الثقل، وهذا ما يحرص الشاب دوما على استمراره وكقاعدة في كل المرات، باختلاف اللون والزيادة في السمنة وثقل الأكياس.

نهض الشاب واقفا وبأدب بعيد عن الخضوع ليضع الكيس بهدوء فوق المكتب ليتوهج لونه الأزرق اللامع تحت ضوء المصباح مبهرا عيني القائد بمميزاته الجديدة ما جعله يسارع بالسحب المتواتر تكرارا ومتصل من مبسم خرطوم الأرجيلة لينتشر رصيدها بالدخان المخزون ويعم حتى أخفى الباشا مع معظم خلفية المكتب.

بعد لحظات سمع الشاب من خلال طبقات سحب الدخان سيمفونية مريحة تردد أصداء ضحكات الباشا القائد في تركيبتها التركية الأصيلة والباشاوية بالانتماء للعظمات السلطانية وجينيا للسلالات السلطوية وظلت تجلجل

كالرعد وكأن مطلقها مارد عظيم رأسه بين طبقات سحب السماء، ثم شاهد ملامحه تتضح بالتدرج من بين السحب ثم وقف الباشا وبدأ يحوم بخطوات متأنية رتيبة متلاعبا بسوط أسود قصير بين يديه، وأرسل صوته بقية الضحك وهو يقول:

– ها، ها! انت ولد نمرود! خطير!

جبـار!

خطير!

وتابع بحماس:

– أنا شفت كتير بالعين!

وقابلت أكتر!

من أشجع القبضايات ...

وأنذل زعران الشام ..

ولعبت مع أقوى الفتوات .. في شمال أفريقيا

واذليت أوسخ بلطجيات ... لكن!

كله .. كان مسكين! كله غبي!

كل يوم النفر واحد يعمل عشرة غلطات

توديه ستين داهية ..

وعاد الباشا فجأة لمجلسه غاضبا وكأنه تلقى طعنات داخلية سريعة أثناء عبوره بهذه الذكريات، ربما هي بلا شك التي كانت تتسبب بغضب الباب العالي وتؤدي الى إبعاده تكرارا، ثم لوح بمبسم الخرطوم الذهبي اللامع نحو الذيب:

– لكن! انت ..؟ انت عجيب!!

بدوي مدهش!

كيف؟ ما فيه تعليم! جاهل!

لكن! برافوا!

خلاني يحس أنا خلاص .. هههها

شيبة كبير!

خلاني يشوف أنا .. نفسي!

غبي كبير ..

ويستدرك بسرعة! ليستعيد ما أضاع في حماسه من مقام نفسه وهيبة موقعه فعاد بصوته ليضع نقاط اعترافه الباشوي وبالحروف البارزة:

- لكن! عفارم عليك .. ولد بدوي!

بدوي وسخ! لكن مخ!

وأكمل بهدوء بعين واحدة والأخرى شبه مغمضة وكأنه يرى بها يتأمل صورا متتابعة:

- بس! انت شوية خبرة وشوية تدريب في

مدرسة أنا قائد عظيم "سرّاج باشا!

شوية، شوية، كم شهر يصير ولد بدوي صغير ..

شيخ تجار!

ويمكن .. شيخ بلد!

وبعدين بدوي أسود .. هذا يسكن سرايا كبير

يا بدو .. (متفكها).

إن مشاهد تلك الليلة هي ما كان الذيب بن شباب يستعيد ويراجع محتواها حتى انتهى في زاويته صارخا بتلك العبارات بنجاحه بالوصول للحلول وفي

ذيولها سمع ما سبق وتردد من كلمات ممتزجة في صدى قهقهة الباشا ترعد فيه من خلال سحب أفكاره.

إن هذه المشاهد ظلت تستعاد كالنبع ظل يرتاده "الذيب" في سكنات الليالي في زاوية القهوة المعتمة، ليرتوي منها في أحلامه حتى كان اليوم الذي تلا اكتمال التدريب، وتشرب عقله من مخزون خبرات خطيرة في رأس القائد الضخمة ليترك له القائد ولذكائه اختيار الوقت المناسب للتحرك والتنفيذ في المعركة الحلم! وأتت الليلة التي اكتملت له، وتعافت فيها أصابع كف العصابة الخمسة، ليقفز جالسا من أحلامه بين زمرته المكتملة وأعلنها الساعة المختارة، ليهتف بعبارته مبتهجا:

لقيتها، لقيتها ...

ثم يجمعهم إليه بالإشارة ليمهد للأمر بمداعبتهم أو امتحانهم قائلا:

- يا الربع! ما لا حظتوا مثلي ..؟

من شهور وسنين والخير والأنعام تتكوم حولنا،

وجيوبي تمتلئ بقطع الفضة والذهب!

وكل هذا كله يصير وحنا .. جالسين؟

ويمكن تجي وحنا نايمين!

فقال "زعل" ابن عم العميد دون اكتراث:

- يا خوي! هذا عايدي، عايدي! وحنا خابرين،

والحمد لله!

بس! و.. وايش هو الغريب؟

فتبسم "الذيب" لسذاجة زعل، وسألهم من جديد:

- لا! هذا فيه ألف شيء غريب!

وهو التفكير في العمل الكبير والخطير ..

ليسارِع بالرد ابن العم " زعل" من جديد بكل برود:

- والله ما نشوف إلا النعمة قدامنا، هاه!

وحنا والحمد لله نرعى فيها و .. ونتنفّخ مثل غنم الضحايا.

فيضحك العميد وقد يئس منه ومن صمت الآخرين:

- لا! يا الظالم!

وعز الله .. إنك صدق منتفخ مثل الثور يا زعل

وما بقى لك إلا الذبح وعلى يدي!

والتفت الذيب محدقا النظر في عيني كل واحد منهم وهو يقول:

- هذا يعني .. أن حنا هنا .. أسياد!

شيوخ! في ذا المكان!

وكل يوم لنا هنا عشرات وعشرات من الناس

يخدمونا، ويملون بطوننا ومعها

جيوبنا ..

فقال" شويمان" ضاحكا بلا مبالاة، ومن أجل التحدث وحسب:

- خير يا طير! وذي قلناها لك قبيل ...

وخابرينها...

تجاهل العميد الرد وفرقع بأصابعه في الهواء:

- طيب! ليش ما نخلي عشرات الخدم ذولا من جلابة أكياس البطاطس وأقفاص الدجاج يصيرون بالميّات من حولنا؟

وبنشوة وابتسامة أكمل:

- لكن! يصير بدالهم تجار الذهب والفضة والقماش
والحديد والجلد والخشب والحب والعطور!

ويواصل بحماس ولكن وهو يضغط على العبارات:

- وبدل خياش البصل وزنابيل الطماطم .. تصير
لنا أكياس مصرورة من الفضة والذهب بس!
وبدال عيشتنا في ذي المغارة "المروحة" من
العفن ..
نسكن قصور في وسط البساتين ...

مد "زعل" يده ليقول شيئا ويبدو أنه تبخر فصمت، وظن أنه تذكرها أو وجد فكرة أخرى وعزم على قولها ولكنها تبخرت أيضا ولم يجد منها شيئا إلا أن يضحك وقال وهو يتظاهر بالفهم:

- يا خوي! كن كلامك فيه شيء ما أدري واش
هو؟ ما أدري! هو زين وإلا شين؟
ألحقوني يا ربعي!
وش السالفة؟

أخيرا خرج شويش الدم هذه المرة عن صمته لإحساسه بما يرمي ويخطط له العميد وما وراءه من جدية المغامرة الكبرى التي يحلم هو بها أيضا ويحقق ما يريحه ولكن يتطلب منه التأكد من سلامة مغامرة هذا الشاب الطموح ومن صلابة مخططه وضمانات الأمان فيه فقال في هدوء وتمعن:

- كلامك زين، وهو خطير! لكن ! ..
في ظني ما لها وسيلة مضمونة إلا للهلاك

إلا اذا عندك اللي يقنع ويضمن النجاح!

والنجاح وبس!

وأنها تصير حقيقة ف ... يدينا يدك!

وهنا أخفض العميد صوته هامسا وإصبعه تؤكد مع كل نبرة:

- وأنا أقول إن الوسيلة سهلة والنتيجة ضمان

وبرقبتي!

وهي ذا الحين في يدي، وطريقتها هنا ..

قال هذا وهو يشير بإصبعه نحو موقع المخ ولتتوجه أنظار البقية نحو "الذيب" بتركيز وتساؤل ولكنها تحمل الثقة في عميدهم، وبإشارة أخرى معروفة منه توجهوا إليه هذه المرة وهم يصيخون آذنهم في وضع جاهزية التشغيل التامة، وقام الذيب في هذه الأثناء بعمليات مسح شاملة وسريعة بعينيه للمكان من حوله وفي شقوق الجدار من خلفه ألا تكون زرعت فيها أعين متجسسة أو آذان متلصصة، وللمزيد من الحيطة والأمان زاد من خفض مستوى الصوت:

- مع الفجر! وبعد فتح البوابات نكون مع طلوع

الشمس في مغاراتنا بالجبال الغربية اللي أنتم

خابرينها!

وهناك رايحين تعرفون باقي العلوم، وتتحقق

بها كل الحلوم، لكن! ها الحين:

يللاه! النوم!

الهمام! النوم، يللاه!

استدار عنهم ليستلقي على المركاز وأدار لهم ظهره واضعا رأسه على الوسادة، وساد الصمت في كل المكان.

وبانقضاء بضعة أشهر كانت كافية لينتهي فيها الذيب شباب من تجهيز وتدريب رجاله ودعمهم ببعض الرجال وبالسلاح سرا عن طريق مقام قائد الحامية وليشن أول حملاته للسلب بقطع الطرق حول بلاد السور الطائف وشن غارات النهب من الرعاة لتنزع أخبارها الرعب في كل مكان وتكتمل سيطرته على جميع ما حول البلدة ويتمكن من فرض ما شاء من ضرائب ومكوس على القوافل وأصحاب المصالح للمرور بالمنطقة أو لدخول البلدة والخروج منها، وأتبع ذلك بالهدف السري وكان بفرض هيمنته على أهلها وأجبرهم على دفع الكثير من الرسوم أو التهديد بحصارهم وقطع مصالحهم، كما فرض عليهم في البداية حق الدخول والخروج للبلدة ورجاله متى شاء فتمكن لاحقا من الاستيلاء على الحصون والبوابات ويفرض عليهم أخيرا الحماية في داخل البلدة وحراستهم والدفاع عنهم من هجمات اللصوص والأشرار وأي اعتداء وهذا مقابل إتاوات تراكض على دفعها الجميع من اجل استعادة الأمان المفقود ولذيذ أحلام النوم المسلوبة.

ولكن هل كانوا لا يعلمون أو يدعون الغباء بأنه لم يعد هناك أي أعداء أو لصوص وأشرار ليحميهم منه "الذيب" ورجاله، متجاهلين أن أكبر الأعداء واللصوص هم هؤلاء الذين يدفعون لهم الذهب ليحموهم وهم من ينامون بينهم وحول بيوتهم ويجوبون الشوارع وأمام متاجرهم، وإنهم يدفعون لهذا الحامي والحرامي حتى الرضا متظاهرين بزوال كل الخوف عنهم ونسيانه، وكانوا يصدقون أكذوبتهم ليستأنسوا فيها الطمأنينة.

وما هي إلا عدة سنيات حتى تحققت رؤيا أو نبوءة "عظمات الحاكم وقائد الحامية الكبير والخبير بقدرات اللصوص وقراءته لمستقبل وطموحات الصعلوك البدوي الشاب الذيب بن شباب بأنه موهبة إجرامية خطير، وليصبح

حقا أول زعيم عصابة منظمة لقطع الطرق والسلب ثم يتربع كأول عميد وعمدة أمين لحماية البلدة الغنية وأهلها وليرتفع له فيها أكبر وأفخم "سرايا" وسط أجمل البساتين، ويحتوي بداخله ما كان حلما في نظرات عين البدوي الصغير الجاهل رآه وأحبه في أول نظرة في المكتب الفاره لقائد الحامية، وحينها أرتفع حاجبه الأيمن وتقلصت عينه اليسرى من ضياء أهم وأغلى الكنوز التي أقسم سرا أن يقوم بسرقتها مهما كلفه الأمر ومهما بلغ ثمن المجازفة ولكنه اليوم حصل على كامل المكتب الباشوي الخاص بصاحب عالي مقام الحاكم وقائد قوة القطاع "سراج باشا"، وقصره الرائع الهندسة والتحف وفيه كل ما كان حوي ودون أي نقص في جميع التفاصيل، وفيه يتلألأ ضياء ذلك المصباح الباهر الذي أزاغ عينيه وكان يحمل حلمه الذي تحقق!

وهذا المقطع أو المنظر الذي ظهر حينها مر وكأنه لم يكن موجودا في مشاهد تلك الليلة أو لم يحمل نبوءة! ولم تفصح عنه الأحلام ولم يسمع القسم والنذر وقد طمست كل الآثار ملامح البداوة والبؤس ولم تميز عين الباشا المتمرسة الخبيرة أي شيء من ذلك بينما كان كل شيء يحاط بقوة من عين الشاب والمشاهد فيها كلها له حصرية وهي غير تلك التي في بريق العين اليسرى حين تصنع بها الغباء والذهول مما يرى!

وما شاهد وفكر فيه لم يكن أحلام لهذا الشاب البدوي الجاهل "الذيب شباب" بل أهداف وخطوات ترسم نهج الأيام القادمة بالسبل المتماسكة من أجل تحقيقها، وسعى من الغد بكل قوة وإخلاص للباشا المحب لتملك الأموال بأرخص الوسائل وغامر كل ليل نهار ودون توقف وهو يقلب في زاويته كل ليل نتائج معادلات الواقع والموازين حتى استولى على سر قوة العقل والقلب وسحر الكلمة لولوج شفرات أبواب الباب العالي وتمكن برعاية أسطر في

"فرمان سلطاني" أن يقتلع بها الحاكم القائد ابن البلاط السلطاني من داخل حصنه المشيد شبه عار ليكمل بقية مصيره في التنقل والترحيل وهذه المرة هي بالعودة ولكن إلى عمق أدغال أفريقيا ويكون في موقعه الذيب شباب باشا! .

وحين دارت الأيام وتبدلت فيها القواعد كالعادة وحدث أن شاخ وتقاعد سيد أعيان البلدة المدعو الشيخ ذيب شباب باشا عن كل أعمال المغامرات وتفرغ للمشيخة التجارية وجمع الأموال العظيمة كان واعيا قبلها وحينها ولم ينس بالتأكيد أن يعطي عجلات الزمن حقها كيف تدور!

فهو السباق والأشد حرصا ممن يسارعون بدفع كل أنواع الإتاوات وعن طيب خاطر لكل من تورث بعده أدوار الشر أو الحماية لاحقا من زعماء العصابات داخل البلدة، ولكل مغامر وأي من يكن قادرا على حماية قوافله التجارية ومصالحة داخل وخارج البلدة حول ويقدمها في أسرع وقت من أجل الحفاظ على مكتسباته والظفر بساعات من النوم بالأمان.

*****

رؤيا الخفاش المارد

ربما بعد انتشار هذه الرؤيا بين جهلة أهل البلدة كان رب الأقدار رسم حقا النهاية الحتمية لأسطورة السور وهي نهاية لعهود الهيمنة والقوة لكل الأسوار!

كانت نهايته مرسومة من نقطة البداية على عجلة الزمان، ومنها جاء الدوران بتسارع نحو النهاية.

فحين تلاطمت أحداث هذا القرن بدت وكأنها الدورة الأخيرة للحياة، فظهرت أحداثها غريبة والأسباب تتوالد بغرابة وبطرق مجهولة ودون خطوات للتوقف.

وانتشرت الهواجس بين أهل البلدة بالتكهنات، فمنها ما دار حول فناء أو انبعاث إنسان عظيم أو هي علامات عن قرب زوال شيء عزيز على قلوب أهل البلدة!

وإذا بالبعض يعود لنبش الماضي بحثا عن أسرار ورسالات من القدماء من أسلافهم كانت عبرت غامضة في غفلات، ومن هذا برزت فجأة حكاية ساذجة أو خرافة قديمة كان أطلق عليها رؤيا " زميع الخباز"!

وبمثل هذه الأجواء وهي الأنسب لبذر أو نمو ووفرة إنتاج الإشاعات وانتشار ما يسمى الهلس أو العبث وكل رخيص في القول والأفعال والأخلاق والسلوكيات، فيجد محبو هذا النوع من الحياة الأرض الخصبة والأجواء المطلوبة للتسكع والترويج، فتختلط بين الناس الحقائق بكل تافه وتكتسب جميعها المكانة الأولى في كل تجمع صغير وبين جميع الناس، وبرع هواة التأويل والتهويل للأمور والتفسير لكل شيء كرسالات موجهة أو نذر شؤم مريعة ستصيب البلدة، ومنها ما ينبئ ربما بما يشبه طوفان نوح أو خسف سدوم، ولكن من يعتبروا أنفسهم عقلاء سخروا منها ومن رؤيا زميع الخباز وأتهم بالسفه وبأنه كان معتوه في زمانه، فقال أحدهم عنه هذه النادرة:

أن ما سبب له تلك الرؤيا أنه نام ليلته في الفرن

وأسكرته روائح تخمر العجين ..

وقال آخر:

أن زميع لم يأكل خبز العشاء تلك الليلة محمرا

ومقمرا بل شربه مخمرا ..

ولكن أكثرهم فزع حقا من تكرار سماع الرؤيا العجيبة أو تشاءم، إذ قال لهم فيها زميع الخباز:

انه رأى في منامه خفاشا أسودا عملاقا مقبلا على البلدة وظل ينزل ببطء حتى وقف بين قلعتي البوابة الشرقية، ثم بسط جناحيه وحجب عن البلدة الأفق ومعظم السماء ثم أخذ يدير رأسه يمنة ويسرة بعينين متقدة الحمرة ثم أخذ يزعق بصوت مريع وهو ينفث من فمه دخانا كثيفا تحول إلى لهيب نار وأشعل الحرائق وتأججت في كل أنحاء البلدة، وحين أصبحت البلدة جميعها ككتلة سوداء من الفحم أرتفع بجناحيه واستدار راحلا من حيث أتى ولكن! السور بقي مشتعلا وأحجاره تتوهج متساقطة حتى اختفى متساويا مع الأرض!

وبدا أن أغلبهم أخذ يتوجس في هذه الرؤيا عظيم الشرور والأغرب أنهم وضعوا وحددوا أماكنا لكثير من التوقعات فهناك من أكد أنها ستصيب كل هذه البلدة أو بعض منها وحدد البعض كل أهلها أو البعض منهم أو بعينهم وقرر هذا لأسباب في نفسه أو حدد أسبابا لأماكن بصفتها من البساتين والحقول وجبال وأودية، وأنها كارثة عظيمة قد تفني كل شيء في البلدة إلا أن أحدا لم يتطرق لذلك السور الشامخ؟ لم يكن يجرؤ أي منهم على أن يفكر أو يتخيل سقوط حجارته أو انهدامه أبدا

مهما عظمت الكوارث إلا زميع الخباز! وهذا لا يعني بأن هناك من كذب هذه الرؤيا وسفه صاحبها ونسبها للخرافات، ولكن نطور الأحداث بتوالي سنوات ليست بالهادئة تعود لتظل وتسمع الأذان وتعيد للأذهان الرؤيا وتحلل تفاصيلها حتى أزفت اللحظة في أجندة القدر ورأوا بأعينهم العملاق الجبار يهوي حقيقة وتتناثر صخوره الضخمة على الأرض أحجارا تفتتها المعاول.

*****

أهل البوابة الشرقية

البداية هي كلمة السور، ومعناها السطحي هو أفعال وأمجاد وتاريخ، وهناك أيضا ما هو أكبر من الثلاثة احرف، وتتضمن الردع والهيبة والأمان.

وبقدر ما فرضه هذا الجبار الشامخ حتى نال القداسة في النفوس والمجد والشهرة له ولمن عاش داخله ومن عاش حوله في تاريخ طويل لعشرات آلاف القرون وامتلأت بسير عظمته في حماية هذه البلدة ورفع شأنها، كما أعتبر المهد أو الحضن الذي حقق وجود أمة ككيان وحفظها ورعاها وأبعد عنها كل الشرور.

وقيل في أسطورة أخرى له أنه هو ذلك الجبار الذي فتن بها لحظة التقاها أول مرة في أجمل سفوح الجبال الخضراء وعلى ضفاف صحراء ذهبية رحيبة، وفي صفاء ليلة مقمرة فعشقها، ثم طاف بها فاتحا ذرعيه وطوقها، وأبعدها عن كل طامع كي يحميها، وبعد أن ضمها الى صدره في شوق تمخض عنهما مجتمع هم أولاده أبناء بلاد السور الطائف.

وهم الذين تعايشوا في أحضانه بالمحبة يرفلون سعادة وبوداعة في عز الغنى والأمان، وهذا أغاض جبار الصحراء وملأته الغيرة بالأحقاد وعزم على إيذائهم وإيقاع الشرور فيهم فسارع الجبار العاشق وجعل من ذراعيه سورا صخريا قويا صلبا يطوف بهم وبممتلكاتهم فحفظهم بمحبته وعاشوا في أمانه.

وفي أسطورة قيل إن المسافر في عمق الصحراء أو القادم من بعيد كان يشاهد في ليال غريبة غير معروفة ضياء متصاعدة فوق البلدة وأشاعوا أنها الدليل القاطع على أن السور وأهل السور يرقدون على كنوز قديمة تغني جميع من يعيش فوق الأرض، وقيل إنها كنوز سليمان المفقودة التي هربت بها العفاريت

والجن بعد أن تأكدت من موته ودفنتها هناك وبنت حولها ذلك السور الجبار، وإن أهل السور جميعهم أثرياء تمتلئ تحتهم الأقبية وسراديب ببيوتهم ومتاجرهم بأطنان من الذهب والفضة والألماس.

وقالت أسطورة أخرى إن السور ما هو إلا جن عملاق أسر قبيلة من البشر وأقام حولهم سور جبار مترامي، وجعل هؤلاء عبيدا يعملون داخله يستخرجون ويكنزون له في أعماقها الذهب والفضة والأحجار الكريمة ولا يستطيع أحد منهم المغادرة لأنه يقتل فورا كل من فكر بالهرب أو إفشاء أي سر من الأسرار، ثم وفجأة أختفي ذلك الجن ولم يعد! وتحرر هؤلاء، وكان الناس يتهامسون ويغمزون بأن سلالات القبيلة هم من يعش ويحتمي داخل الأسوار وهم يخفون ما كانوا جمعوه للعفريت من كنوز.

لكن والأهم ما يقال الآن عن السور بعد توالي معظم طيات

زمانه بأنه أمسى أشر من يقطع اللحمة والرحم، لأنه نبذ وبكل القسوة جميع من ولد خارج جدرانه من الأبناء ومن كان يطلق عليهم أهل السور الطائف أيضا ولكن فيما بعد أصر من في داخله على تسميتهم بأبناء البوابات!

وتركهم يقاسوا أنواع الذل والهوان ويعيشوا جميع أنواع الحرمان وهم الأقرب من حصاد وخيرات البلدة، ومع هذا ظل لقرون وبكل برود وجمود يسقي أهل البوابات وأولادهم والأحفاد كؤوس الحرمان في الوقت الذي هو يدير فيه ظهره بصرامة لمن هم خارج بواباته والجدران من أبنائه كانت تنهمر مكارمه بغزارة وتغرق كراماته كل من في داخله وبالسعادة والرفاه، مع أن جميعهم يحمل اسمه وله الفضل في سبب تواجدهم، إلا أن من في الجانب المحروم أصبحوا يشعرون بغصة مريرة في أعماقهم وكراهية للسور وبسبب إحساسهم بالظلم فاعتبروه

نقمة عليهم فنقموا وامتلأت قلوبهم بالحقد عليه لهذا الإجحاف والكيل لأبنائه بمكيالين!

وليس الغريب أن تتجسد في بعض أولاده شياطين الحسد ويرفعوا رايات العداء على من هم في الداخل وأن يلجأ البعض منهم إلى طرق الشر ليأخذوا باليد ما استطاعوا مما يرونه لهم حقا مسلوب!

فعادت مسألة الحماية والأمان ومخاوف أهل البلدة القديمة

في الداخل إلى المربع الأول، ولكن الهاجس الجديد هو الأعظم والأكثر رعبا من الماضي وهو في نظرهم أشد خطرا من عداوة كل بشر الدنيا الكامنة في الصحاري.

فالذي أشعل فتيل هذه العداوة ما مر على البلدة من هواجس الحماية فاستعانوا بقوى أجيرة والتفوا على الوعود والعهود واستندوا الى القوة الأجيرة فمزقوا صكوك الثقة بالجيرة واستغلوا قوة السور وحصانته في إذاقة أهل البوابة الشرقية وغيرها مهانة العزل والاحتقار وزيادة حرمانهم من أي مشاركة لمن في داخله بحرية الدخول والعمل لنيل بعض فرص الرزق وهي وفيرة، ولكن السور ومن في داخله ظل ينبذهم ويركلهم بكل قسوة خلف الجدران والبوابات أذلاء، كما ألصقت بهم أسوأ الصفات والتهم بجرائم قطع الطرق والسرقات ولكن للزمن دوما دورات وصولات، تعقبها تقلبات وتغيرات ولا يحصل على البركات إلا الصابرين!

وبعد أن كانت جل أحلام من هم في خارج السور في سقوطه وتفرق أحجاره وطمر كل آثر له تعتبر ضرب من الجنون أو المستحيل بعينه أصبح في دورات تالية مفهوم المستحيل يميل نحو احتمالية الصدق، ثم حملت دورات بأن مفاهيم الاستحالة هي وهم، وأن هناك الكثير يمكن تحقيقه عند وجود الإرادة

الحقيقية، وتحقق في ذات يوم ذلك الحلم الجنوني ولم يتبق من ذلك الجبار أو عنه في القرون اللاحقة إلا ذكريات وأكاذيب في روايات باهتة أو حكايات خيالية مشبعة بالأساطير.

وربما تبقت منه كلمات عابرة تتناقلها الألسن بلا قصد أو أمست عبارات غبية من لغات منقرضة في بطون كتب لا حاجة لأن تفتح أبدا حتى دفنتها طبقات متراكمة من الغبار وبدأت تتحلل وستأكلها عثة الأزمنة.

ولكن الحكايات تبقى وتمسي منها بقايا كسوالف وأساطير يرددها بعض السهارى لطرد الملل وكانت تبدأها بالعبارة المعتادة:

كان يا ما كان، في قديم الزمان .. كان في أيام السور!

****

الرقص فوق القبور

الأسوار أبدا، وأبدا لا تنام ولكن! ينام الحارس أو الرقيب! وقد ينام أهل قرية وشعب وأمة حين يركنوا أمورهم إلى الثقة في الماضي ويتكلون على غشاوة أبصارهم وبصيرتهم في الرؤية وتحلق في مجالسهم عبارات الغرور والكسل والتخاذل.

خلالها تتلاشى الرؤية اليقظة لحقيقة كل طيف وتصدأ متاريس الحيطة، وتتبدد في هذه الضبابيات أحلام شعوب!

سبتوا في الأوهام واطمأنوا في التواكل! أو استندوا على شموخ الأسوار وركن حرسها الى الغفلة!

والأسوار راسخات في جمود، لذا هي لا تبكي على أحد في الكوارث أبدا، أبدا! ولا تأبه أو تتحسر على من غفلوا عنها وتذل من أفقدوها المهابة والاحترام!

والغفلة من ألدّ أعداء الإنسان والأخطر على حياته، والغرور أيضا هو بوابة الغفلة،

ومنهما الفرص المنشودة التي يبدع فيهما الشيطان، فلا يجد من غرر به أي عزاء ولا حسرة في ترديد القول "لو أن"!

وما تخلفانه إلا الندم على التفريط فيما كان بالإمكان، وكم مرت على أسوار أزمان وقفت فيها في خجل تواري الحزن وهي تشهد كيف يدفع أهلها في الغفلات من نفيس الكرامة وغالي الدماء وضياع باهض الممتلكات.

الأسوار مخلوق قوي جدا ولكنه من الصخر وهي لا تتغير أبدا أو تضعف عبر الدهور، وأيضا لا تشعر، وهذا الجانب متروك لمن حولها من بني الإنسان ومنهم

يحدث أي تغير وضعف أو قوة، وللأسف كلما حدث وأفاق هذا الإنسان وعاد يوما من غفلته فهو لا يعتبر، فسيعود بالغرور للكسل ولتكرار الغفلة والتفريط ومن ثم الندم واللوم، وهذا كما فعل في أول خطيئة والى نهاية الزمان.

وقد شهدت الأسوار الكثير من هذه الأحداث المتكررة داخلها وحولها وسيول من الدماء في تداول الأيام. وحدث في مثل هذه الحال من الغفلة وفي ضحى يوم مشمس دافئ وان كانت رياح الشتاء الباردة تزمجر طوال الليل في أزقة البلدة المسبوتة بطمأنينة الغرور حتى اللحظة التي اختطفت فيها المرأة من رعبها ولدها الصغير عن الأرض في ذعر، غير مصدقة ما تسمعه أذناها من معمعة ولعلعة وصرخات الهلع الشديد قادمة من كل صوب، ويدوي في كل مكان الصوت الغريب والغير معهود للمدافع وطلقات البنادق وأزيز الرصاص العابر نحو كل جحر وفي عمق أي عتمة أو سواد ثابت أو متحرك، على الأسوار والأبراج وكل سقيفة، ويتصاعد الزعيق من كل حدب بطلب النجدة وبطلب الغوث من الله، والدعاء والتكبير ينطلق الى السماء من هنا وهناك وفي مشاهد الركض الجنوني من جميع النواحي وإلى أي نواحي أخرى تردد صرخات بالعون والصياح بالألم في تمازج وتبادل لأصوات الرجال بالنساء مع الأطفال!

إنه صباح يوم عصيب والضوضاء الفظيعة تجلجل وتملأ الشوارع والأزقة وعلى الأسوار، وكلها تصرخ مهللة بأنه يوم رهيب وتؤمن بانه القيامة وستبيد كل الأحياء في البلدة وكل البلدان!

انتزعت المرأة طفلها بقوة عن الأرض وضمته الى صدرها وبقوة كادت تحطم أضلعه الرقيقة، وقد تأكدت بأنها لا تتخيل! وأن ما تراه وتسمعه ليس كابوسا أو حلم جاثوم مجنون، أنها مشاهد أصدق من الحقيقة والواقع والأكثر جنونا من الجنون! فالكل يركض والكل يتخبط وكلهم وبينهم اللاحق والملحوق،

والساحق والمسحوق، والأغلب هارب بذعره لا يعرف إلى أين يتجه وماذا يريد؟

فما أمام الجميع هو ظلام حق، وان هو من خليط الغبار والضباب والدخان الكثيف الذي ينفث من الأفواه الهائجة بألسنة النيران المشتعلة والممتزجة بروائح البارود وكل شيء مبهم، ومن جداول الدم المراق أو النازف والناقع حول الجثث المترامية والساقطة في الأزقة وحول البيوت وداخلها، وعلى أطراف وعمق المزارع، فالجثث متناثرة في كل مكان بين محتضرة ومرتعشة تنتظر أو تتعجل الموت والكثير من الجثث النافقة.

راحت المرأة تركض بطفلها بجنونها، تتخطف السبل بلا وعي، وكأنها تتخلل الجدران وتخترق الأسوار وهي تخفيه تحت عباءتها، وكانت تتراءى لها أيدي المحاربين تمتد إليه من كل حدب بروائحها الدموية الكريهة وتراها ومازالت الدماء تقطر منها بعد أن غاصت أصابعها في أشلاء جثث أهل البلدة وقد تعرت من الحياة برصاصة أو نحرا وما هشم فيها الأضلع والعظام وتناثرت في كل مكان الرؤوس والأعضاء وأجزاء الأجزاء من الأطراف والأحشاء.

لا تدري كم أستغرقها هذا حتى وجدت نفسها في زقاق عميق ضيق في امتداد جداري بستانين، خلا من الراكضين وكأنه أصبح بعيدا عن بؤر أصوات الجلبة والصراخ، وان مازالت تسمعها ويمكن أن تحدد عليها ناحية كل بوابة ونخمن منها الرئيسية لو تجرأت على الالتفات حيث حرائق سوق البلدة وما حول جوانب السور الأخرى، ولكنها يمكن أن تقسم بعدم رؤيتها لهذه الطرقات رغم مرورها بكل هذه الأزقة والدروب مئات المرات قبل هذه الساعة، فهي تشعر الآن فقط بأنها تسير في بلدة أخرى غريبة غير بلدتها التي ولدت فيها وربما قد تعرف عدد اللبنات في أكثر دورها، ولكن في غير هذا الوقت الذي بالكاد

تذكرت بأنه فعلا طريق وأن عليها أن تسابق الريح كي تصل إلى منتهاه، ولعل يصدق حدسها وتجد هناك المقبرة القديمة والتي دفن فيها بعض الأجداد، ولو تحقق هذا فستتمكن من المروق من فتحة قبر ضيقة خفية بجوار السور الشمالي، وستجده مخبأ أمينا لابنها حتى تنتهي معمعة هذه الحرب الملعونة، وبأي النهايات، ثم تأكد لها بأنها بحاجة الى مائة خطوة أخرى فقط من نهاية الزقاق وهي كافية لتسير بعدها في مساحة نمت واستطالت فيها الحشائش المتوحشة، وحتما ستجد فتحة في أحد القبور كما تتذكر.

ما أن بلغت نهاية الزقاق حتى أحست بأن الأرض انشقت تحت قدميها عن محارب ضخم أسمر البشرة ينتصب أمامها ومعترضا طريقها بخروجه عليها فجأة من مكمنه في الناصية ليقف سادا أمامها فضاء الطريق وصارخا فيها:

- قف! وألا أطلقت عليك النار!

جمدت في مكانها كما جمد الدم في عروقها، ومع ذلك لم تزل بعض عضلات قلبها حية، إذ أخذت يداها وهي في جحيم الرعب تلف بسرعة أي فرجة بعباءتها لتحيط نفسها وتتستر على ما قد يظهر من ابنها.

وتقدم نحوها المحارب بحذر وهو يصوب بندقيته، تحسبا لأي مفاجأة غير سارة تجعله ضحية وسخرية سخيفة من رجل مسلح تنكر بزي امرأة!

وزعق فيها مهددا:

لا أظنّك امرأة! هيَّا أرفع العباءة فورا!

ماذا تخبئ تحتها؟

هيا! اكشف نفسك وبسرعة وألا ..أمطرت جسمك

بالرصاص هيا! بسرعة!

خافت أن يطلق النار على ولدها، فأخذت بتردد وخوف بكشف العباءة عما تخفيه تحتها، ليظهر وجه طفلها وعيناه السوداوين ممتلئة بالرعب، تتفجر بالكثير من التساؤلات مع ملامح الفزع والحيرة لمعرفة ما يجري ولكن دون أثر للدموع قائلة:

- ماذا يجري؟

كنت ألعب عند أقدام أمي!

وهي جالسة وسط أكداس عطارتها من الأعشاب

والحبوب في جانب من السوق!

وتزلزلت الأرض حولي، وأخذ الجميع يركض ويصرخ ويولول في كل اتجاه تاركين كل شيء أو حاملين أي شيء، لتضج السماء بعدها كالرعد المتواصل بما لم تسمعه أذناي ..

وانتزعتني أمي من الأرض! وتاركة هي الأخرى كل شيء لتنطلق بي عبر هذه الطرقات وهي تخفيني، أو تخفي عن ناظري رؤية أي شيء .. ليتني أفهم ماذا يجري؟

بينما الطفل يتساءل بذهوله والأم جامدة بانتظار مصيرهما كان المحارب ما يزال ينظر في وجه وعيني الطفل "سِجا"! وهذا هو اسمه.

وكأنه أستقرأ كل ما دار وجال بذهنه من التساؤلات، ثم لاحت بجانب وجه المحارب ابتسامة حانية!

ولا تعرف المرأة لماذا شعرت بصدقها وهي تتفحص تقلبات وجهه منذ أوقفها؟

فلم تكن ابتسامة ساخرة أو ماكرة، إنما مشرقة بأطياف وهالات من الوداعة وبالرحمة!

كانت تدعو الله كثيرا وهي تركض، وقد تكون تلك الابتسامة هي العون الإلهي والرحمة التي كانت تسأل الله أن يرسلها لها وأن تحلق عليها وتحفظ طفلها.

ولما لا! والله سميع بصير وقريب مجيب. ولكن؟

ما شأن المحارب؟ وما الذي دعاه للابتسام في هذا الموقف؟ ما الذي كان أستقرأه برأس الطفل ليتحول الى ملاك للرحمة وهو يلبس ثوب الحرب؟ ويحمل بيديه سلاح الهلاك والموت؟

لابد انه قرأ في وجه الطفل أهم الأشياء المختزنة من ماضيه! ولا شك أستعاد منها في هذه اللحظة أول مشهد من أجواء أحد الحروب العالقة بذاكرته، فكان منه ما لم يكن بالحسبان!

إذ أنشق فجأة عن أوامر الحرب بالعصيان، وأذعن مستجيبا لصوت نداء آخر دعاه الى الرحمة بالإنسان.

فتقدم نحوهما بخطوات هادئة وقال:

أختاه! أنا أحرس وأراقب هذا المكان الذي تنوين

الاختباء فيه! وجميع هذه المنطقة، ولكن!

انطلقي إليه الآن!

وبسرعة، وستكونان بخير. متى شاء الله!

ليس هذا ما صدر عنه وحسب! إنما مد إليها بصرتين أحدهما كبيرة الى حد ما، وكان يخفيهما تحت دروعه، فانحنت لتقبل قدميه أو يديه ولكنه أبعدها عنه، ودفعها لتسرع وتحمي نفسها وابنها من رصاص هجوم الاجتياح الأكبر الوشيك للبلدة، فهو من الطلائع المتسللة من القوات المهاجمة والتي تمهد للدخول الشامل للبلدة! وكرر وهو يدفعها بيده ويستعجلها بالانصراف:

هيا! اذهبي إلى ذلك القبر بحفظ الله وأبقيا فيه حتى تهدأ الأمور، وأرجو أن يحميكم الله! وأن تكن حياتكما بعدها أفضل، هيا أذهبي!

أسرعت المرأة غير مصدقة شيئا مما حدث، بينما ظل المحارب يرقبهما وهو شارد الفكر، واختفيا عن أنظاره في دغل خلف المقابر، وتمتم هامسا وهو يستدير عنهما بظهره دامعا:

ساعدكما الله...!

تحجر الدمع في عينيه وهو ينظر إليهما كأنما يستعيد صورا شبيهة أو ذكرى مماثلة من خلال سحب الماضي، وربما تراءى له مقتل أمه وخطفه من بين أحضانها الدامية أو أنتزع من بين ذراعيها وقد غلفته دماؤها، ليعسفوه بعدها في المعسكرات حتى صنعوا منه هذا المحارب الجبار القلب؟

ولكن قلبه هذا مازال يحتفظ بهذه الذكرى الرقيقة لتجعل منه إنسانا رحيما في يوم وقد عاش كل ماضيه بوحشية الإنسان، فتوج حياته بهذا العمل المعاكس؟

وربما كان هو العمل الأخير!

لأنه لم يظهر له أثر في الأيام التالية أبدا، لاحتمال مقتله في بدء الهجوم الأخير وبعد دخول جميع الجيوش المهاجمة واحتدام القتال، ودوران رحى معارك الهجوم والدفاع الشرسة حول بوابات البلدة ثم على أسوارها ثم في مواجهات الاستنزاف المستميتة والدموية في كل الساحات والأزقة حتى دخلت في عمق كل بيت، حيث كانت تقام فيها للموت الولائم من أجود الضحايا من أهلها وبعض المهاجمين.

فامتلأت البيوت والأزقة بالجثث وبرائحة الدماء التي

غطت الأرض والجدران بألوانها حتى الأسقف، وبدت التربة وكأنها فقدت خاصيتها كتربة اعتاد الناس رؤيتها بلونها وغبارها ليسيروا ويتراكضوا فوق برك

لزجة كثيرة من الدماء القاتمة وبقع كبيرة سوداء متيبسة متناثرة في الطرق وكل مكان.

بعد أيام وربما أسابيع حدث الأهم، حيث طاف بالبلدة المنادون في كل الشوارع، بالإعلان مرارا وتكرارا على مدى أيام ثلاثة:

" أن النصر تم للمهاجمين! واستسلام أهل البلد بالكامل دون أي شروط، وأن هناك عفو معلن لمن تبقى! فليستسلم ويسلّم السلاح ليسلم"!

وتلتها نداءات أخرى:

" وأن حاكم البلدة الجديد يدعوا جميع أهل البلدة كبارهم وصغارهم لإعلان الولاء له، وأن أهل الحاجات سيجدون كل العون والمساعدة، وأن السلام والأمان أصبح للجميع منذ اليوم".

*****

فردوس فوق القبور

خرجت المرأة من القبور بعد ذلك بأيام أخرى، بشكها، وبذعرها، تخطو كعجوز بأقدام هرمة أو كثملة، للتصلب بأرجلها بالمكوث مدة طويلة في قرفصاء مختبئة في حفرة قبر في العراء، حيث يجلدها مع ابنها البرد ليلا وتسفعهما حرارة الشمس مع حرقة العطش والجوع طوال النهار، ومرت بهما أيام لم تعرف عددها ولكن ما ساعدهما على الصمود وقهر الجوع من قبل كان ما وجدته في أحد الصرتين اللتين دسسهما المحارب بين يديها، فكانتا من زاد المحارب والأولى عجينة لابأس بحجمها من التمر مزجت بطحين "الاقط"، وهو من طبخ اللبن وتجفيفه، وقد تدبرت أم سجا أمر هذا الزاد بحرص شديد مع ما وجدته في الغد عند فتحة القبر، وكان شكوة صغيرة من الجلد ملأت بالماء قذف بها المحارب بين الأشجار في تلك الليلة بينما يقوم بجولة تفتيش في المكان، والغريب أنها كانت الليلة الأخيرة التي جال فيها هناك، حيث انقطعت تلك المساعدة مع جولاته أيضا حتى انتهت أيام الجحيم.

أما محتوى الصرة الأخرى والأصغر حجما كان هو الأكثر إذهالا للمرأة، والأغلى ثمنا، مع أنها لا تقل ثقلا!

وبالفعل مفاجأة حقيقية بعد أن فتحتها وتفحصتها المرأة وابنها عقدت الدهشة لسانها، وأخذت ترتجف رعبا من العاقبة، فهي لم تصدق ذلك لأيام وأسابيع وكانت تعيد النظر في التفحص والتفكير بأسباب ونتائج وجودها ولا تجد إجابة أو تفسير! فما وجدت وشاهدت في الكيس أو الصرة كان بريق قطعتان كرويتان كبيرتان من الذهب يتألق بين عدد كبير من مسكوكات وقطع ذهبية وفضية، لم تعرف كيف تعدها أو تحسب قيمتها!

ولكن قلقها ومخاوفها تفاقمت لحظة خروجها من مخبأها، لتتوجه فورا إلى الناصية حيث مكان المحارب الشهم ظنا منها بأنه أخطأ بإعطائها كيس المال ويجب أن تعيده اليه! ولكنها لم تجده، ثم لم تر له أي أثر في البلدة، وان ظلت تبحث عنه أشهرا سرا وعلنا في كل أنحاء البلدة رغم أنها لم تعرف له اسما وقد اختفى دون أي أثر.

لم تعثر على المحارب والأصح الفارس الشهم وتنبهت الى بقية المصائب التي أوجدتها في هذا المكان، فولجت راكضة في الممر الذي سبق وأن اخترقته راكضة هربا تحمل الرعب ووجدت نفسها تركض فيه عائدة ولكنها تحمل في نفسها الأشد بأضعاف من رعبها السابق وتمزقها هموم ممتلئة بالمخاوف والألآم والآمال، أجل فهي تجاهد عواصف مشاعر عاتية ومشتعلة وبأكبر من التي حملتها أثناء هربها بابنها من القتل، وجاءت لهذه الأزقة لتدفن نفسها وابنها أحياء في المقابر القديمة، لذا قررت السير في صمت وألا تفكر بالآتي مطلقا، فكل شيء أكبر من أن تحتمل التفكير فيه، فحتما سترى كل ما قدره الله لها بعينها، وأن عليها منذ الآن أن تعرف كيف تتماسك أولا، وأن تستجمع شتات عواطفها، وأن تضبط تفكيرها وألا لن تصل أولا لأقرب طريق إلى بيتها.

أجل بيتها، حيث الحجرات الصغيرة بروائحها الدافئة والعزيزة على قلبها والتي هي دوما في عينها أعظم من قصور الحاكم وجميع مزارعه، فبين جدرانها الطينية القصيرة عاشت أجمل أيام حياتها مع زوجها وابنهما، وحولهم الكثير من الأقارب والجيران، وجميع هؤلاء هم المخزون الحقيقي لها في الحياة والأهم للسعادة.

في "الدويرات" الصغيرة كان الزوجان يمنيان النفس دوما بأن يجدا يوما في هذا الابن" سجا" البركة والخير والسند العزيز لهما في الحياة مع من ينجبا

لاحقا، ولكن الصور البهيجة زالت فورا وتذكرت ما تسبب في عصر قلبها وآلمها بقوة، وزادت انزعاجها لتسرع حركة قدميها وهي تخترق الأزقة، وتذكرت أن زوجها تركهم منذ أسابيع وقبيل اجتياح البلدة المفاجئ، ومعه كل إخوته وبني عمه والكثير من رجال العائلة ومعهم مثلهم من المتحمسين من رجال البلدة والعديد من الشباب القادرين على حمل السلاح ليصدوا هجمة معادية توقعوها مبكرا، ونصحوا الحاكم بالحذر والاستعداد ولكنهم وجدوا فيه الاستخفاف والسخرية اعتزازا بقوتهم في قوة السور، فتطوع هؤلاء أن يقوموا بالاستطلاع في الفيافي خارج السور، وان واجهوا صدق توقعاتهم فما عليهم سوى المواجهة، وان لم يكن للنصر فليضعفوا من قوة الغزاة قبل وصولهم الى البلدة.

وكانت المفاهيم أة المعلومات بأن هؤلاء الأعداء ليس لهم كثافة عددية كبيرة ولا عدة حرب توازي ما لدى حاكم البلدة، وفي الطريق وجدوا بعضا من الأخبار المضللة أو الملغومة التي نشرها الغزاة، بأنهم قدموا بحملتهم الصغيرة المعتادة ليأخذا بثأر الهزيمة السابقة، وقيل انهم شراذم قليلة من المحاربين، والذي كان خفي عليهم أن هذا الهجوم كان معدا للقيام باجتياح شامل للبلدة وبجيش جرار من أحلاف ومرتزقة لا عهد لأهل الديار بها ولا بما يحملونه من أسلحة، وهي قوى جديدة فتاكة يستخدم فيها ما يسمى سلاح البارود وتسمى مدافع وبنادق!

ربما كان بقاؤهم في الحصن سيكون أكثر فاعلية لولا هذه الخدعة المعلوماتية، وحتى اللحظة ماتزال المرأة لم تعلم بمصيرهم، والحقيقة أنهم سحقوا بسهولة تحت سنابك خيول المحاربين الكثيفة بعد سقوطهم برصاص البنادق، وان وقع هذا في أعماقها وتوجست، إلا أنها طردت كل الأفكار سريعا لتتماسك بالأمل بالدعاء.

وبلوغها لهذه الأفكار ما جعلها تخفف من خطواتها ومن حماسها بالوصول السريع للدار، وأسهم بفتور رغبتها لولا دفعات متخاذلة من أمال باهتة بأنها ستجد زوجها مع الجميع أمامها يبتهجون بعودتها لأكملت طريقها لمجهول آخر جديد.

ومع ذلك استمرت في السير حاملة كل القلق والمخاوف والهواجس المختبئة وهي تتراقص أمامها مع تراقص أرجلها رعبا كلما اقبل رجل مسلح أو تجاوزها، فالأزقة ممتلئة بهم، بهؤلاء المحاربين، بأشكالهم وبملامحهم المميزة عن أهل البلدة، وما زاد فيها القلق والمخاوف بشدة أنها لم تصادف أبدا أي عابر أو جالس من أهل البلدة خلال سيرها وعبورها للازقه وهي تتفادى بقع الدماء فيها وتخفي وجه ابنها وبصره عن الرؤية، وأحست بما يشبه الخدر ينتشر في كل بدنها والشلل يسيطر على أفكارها بتمازج مع الرعب والتشاؤم وهي تشرف على دخول الممرات الضيقة المؤدية الى الحي المحبوب حيث الدار وهو جميع منازل الأهل والأقارب والموقع الأجمل والذي لم تعرف في حياتها موقعا أعظم منه، وتحمل له أكبر الحب والأشواق منذ ولادتها وبينها بالتأكيد بيتها، ولكن كلما زاد اقترابها تأخذ بتلقي صفعات هي أقوى من الخدر والشكوك وما تزال تشعر بها أقوى مع كل التفاتة نحو اليمين أو اليسار، فهي لم ترى أي أبواب مغلقة للبيوت بل أكثرها منزوعة ومحطمة، وليس من أثر لأي قاطن.

ومع رؤيتها لغالبية الأبواب المفتوحة والمخلوعة وما مرت به من بيوت خاوية من أهلها جعلها تطلق مرغمة صرخة تساؤل بفزع لم تستطع التهرب من مواجهتها:

أين أهل البلدة؟

أين الجيران؟ أين الجميع؟

ولم يجب على أسئلتها إلا خلو السامعين في رعب الأزقة والصمت الموحش لما حولها من البيوت!

مرت أيام بعد دخولها حجرتها أو دارها التي بالكاد عرفتها مما طال كل شيء فيه من العبث والهدم أو السرقة، انه كبقية البيوت التي رأتها لاحقا، كان دمرها المحاربون الغزاة للبحث عن المقاومين أو أي رجال أو شباب من أهل البلد وان كانوا مسالمين، فلهم نفس المصير، ثم تسلب البيوت مما فيها، وهذه من النتائج والبديهيات في الحروب.

وهي لم تجد زوجها كما كانت تأمل، ولا أي بقية لأهلها أو الجيران وأيقنت بأنها ربما لن ترى أهل البلدة!

ثم وجدت فيما بعد القليل منهم ولكنها رأتهم بأبواب وأفواه وقلوب مغلقة، وان سمعت القليل من الهمس يرتجف خوفا بما يظن بأنها حقائق!

فالمعروف أن الشائعات تنتقل في كل الأماكن كالنار في الهشيم، إلا في هذه البلدة فهي تحصد الأرواح تحسبا واستباقا بقطع عدد من الرقاب وتقطع أيدي وأرجل، وبعض الألسن تقطع بينما الخبر أو الإشاعة ما يزال في فم أول قائل، ويحدث الكثير من الفتك داخل الدور بينما خارجها تتردد في الأجواء النداءات الحانية في دعوات رقيقة مفتوحة للاستسلام والسلام يطوف بها المنادون ليل نهار في الشوارع بلا انقطاع مجددين دعوات الحاكم المحتل لمن تبقى من أهل البلدة الى الولائم أو لأخذ عطاياه ومنهم الفقراء وكل المحتاجين!

لكن النتيجة ودائما تصبح لم يأتي أحد! من أهل البلدة، ولم يستجيب لهذه النداءات أحد، ولم يحضر للولائم أي أحد، وربما أظهرت الأيام أنه لم يكن من الأحياء أحد حتى يصغي لهذه النداءات.

وهي الحقيقة بأنه لم ينج أو يتبق في البلدة هذا الأحد، ووجد لاحقا عددا ممن تبقي من الأحياء في هذه البلد ولكنهم لم يكونوا سوى قلة من الكهول والعجائز والعجزة من المقعدين ومعاقين ومن المصابين بالعاهات البليغة ولا يرجون أو ينتظرون سوى موتا سريعا ينهي ما بهم من المعاناة، أما الأعلى في المستوى من هؤلاء بصغر السن أو بالصحة الجيدة فقد اختفوا، أو أخفوا قسرا، ولن يظهر منهم على الأرض بعد اليوم أي أحد.

ظل كل سؤال لها وكل تساؤل يجوب –كصمتها–في

سماء البلدة مع مشرق كل شمس وفي سكون الليالي وهي تحتضن ابنها في الظلمة دامعة ولا تجد أي مجيب وهي تتمتم:

- ولكن! أينهم؟

أين زوجي؟ أين أهلي؟

أين جيراني وبقية أهل البلدة؟

يقال في الأسرار وهي من الشائعات التي اقتيد فيها كثير وسفكت عليها رقاب أن هؤلاء أخفاهم موت مؤكد بالقتل وهم الغالبية، وانهم دفنوا في أي مكان من كل مكان في أرض البلدة من البيوت والدروب والمزارع ومنهم من ذبح خارج الأسوار ووري جثمانهم في رمال الصحراء، وهناك ما قيل عن هرب البقية ممن وجدوا الفرصة بعد الهزيمة إلى الجبال والقفار والى ابعد الديار، كما وصل للمرأة إشاعة بالخبر المؤكد الذي قض مضجعها وقلب بقية حياتها رأسا على عقب وكان عن مصير فرقة الدفاع التي خرجت قبل اجتياح البلدة، وان فناءها كان تاما وكاملا ولكن بعد استبسالهم في المواجهة بكل شجاعة لصد الهجوم أو تعطيله، وبالتأكيد أنها هي المحصلة الطبيعية للموازين الغير متكافئة.

مرت الأشهر ولم يعد أحد للبلد لا رجل ولا ولد، فالبلدة مازالت شبه خاوية، تتعطر فيها الأشباح بروائح الجثث وتتسوق بين خرائبها المظلمة حتى فجر الصباح، لتترك بقية المهمات في جولات النهار لأصدقائها المحاربين، ليزيدوا من غلة كثافة أعدادهم ببقية من أنفار إضافة لمن يحتضر بإصابته بعد الحرب أو بالوباء المتفشي.

ولكن هذا الوضع وبعد مرور السنة لم يعجب حاكمها الجديد، وربما شعر بالندم أن يحكم بلدة خالية إلا من أشباح الموتى ممن قتلهم.

وبعد تفكير عميق أمر بأن يبقى نصف الجيش على الأقل

معه في البلدة ومعهم من أراد، وسيسمح لهؤلاء بالتملك والاستيلاء على ما شاءوا من الأملاك في جميع أنحاء البلدة، وبكل ما فيها من الأراضي والبيوت والمزارع وسيكون لهم الكثير من المزايا، فهم أعيان للبلدة، وسيكثر لهم العطايا.

ونجح الحاكم بالإبقاء على بعض مرتزقة الحروب وعاد بقية المحاربين الى أهلهم في بلادهم الأم التي قدموا منها، وبدأت قرية الأموات من جديد تضج بالحياة على سطحها بعد دفن الجثث في باطنها، وتحرك فوقها الناس كما لو أن الأرض انشقت مرة أخرى وأخرجت أمواتها ليكملوا عليها العيش بقية دورة الحياة!

فكثر المارة بالطرق، وعادت تخضر بعض المزارع ببعض الخيرات، وتحركت الأسواق وكثر المتسوقون واتسعت الأنشطة.

ولكن انتشرت في البلدة أخبار وحكايات بمخاوف جديدة تتحدث عن ظهور أشباح الموتى في الأزقة والمزارع وفي البيوت المهجورة؟

وتزايدت هذه المشاهدات مع الوهم في رعب متصل عم جميع البلدة، وتفتق ذهن الحاكم بفكرة أخرى بدت له موفقة، وكانت تهدف لطرد أحاسيس الغربة والكآبة عن محاربيه أو سكان البلدة وشعبها البديل، وأنها سبب في خلق الأوهام والرعب، وتمنى أن تسهم الفكرة في استبدال مخاوفهم من العيش فوق أرض أصبحت مقابر للأموات وأن تعيد الى نفوسهم الإحساس بالأمان وبالسعادة.

فنادى منادي الحاكم بالناس بأن يأتوا بكل الشعراء ويحضروا جميع فرق الرقصات الشعبية وجميع محبي الغناء، وأن يتواجد الجميع عصر كل يوم في الساحات حول القصر وغيرها في عموم البلدة الكبيرة ويقيموا احتفالاتهم ويكملوا رقصهم حتى جزء متأخر من الليل وستقدم للجميع الولائم والمشروبات والفواكه، وأيضا العطايا!

وهكذا! أصبح الغناء والابتهاج والرقص يطول ما طال الليل، وأحيانا يتصل بشروق شمس النهار!

*****

مع تباشير فجر اليوم الذي قضت ليلته "أم سجا" كان امتدادا للعتمة والظلام الذي تعيش فيه طوال سنة مضت، وككل ليلة كانت تجثم على صدرها أثقال كالجبال، وتعيش في ظلمة أعماقها التي تتجاوز مدى قدرة بصرها في حجبها رؤية أقمارها الساطعة أو لمعان النجوم لشدة عذاب النفس وعناء الوحدة، وكل واحدة منها كافية لقتلها كل ساعة بألف ميتة.

فليلها الحالك دوما مليء بالأحزان ويشتد سواده بالكآبة والكوابيس، فلم يتبق لها من الماضي شيئا إلا الموت الذي تراه في كل صباح بعد أن دفن أهلها وأهل زوجها وأهل بلدها، وما زال يفتك بهم بسيوف رجال الحاكم، وبالأوبئة،

ولكنها هذه المرة تتفاجأ فيه بما تراه على غير عادتها مع أنه لم يتبدل عن غيره في طبيعته وشكله، فتساءلت:

- ما هذا الفجر؟!!

بدا لها بأنه سيكون يوما مشرقا على غير ما اعتادت، وإن له شمس وسماء صافية بهيجة، رأت بها الأشياءَ في ألوان أخرى وبروح أكثر متعة!

ولكن حقيقة الأمر أن التغير الجاري هو في داخل المرأة فقط وليس بسبب من مظاهر الطبيعة! فقد تغير فيها في هذا الفجر كل ما ظل يلف حياتها من سواد الأحزان في ماضي الأيام، ففي بطن هذه الليلة السوداء المريعة وقبل فجرها كان أن أقسمت المرأة بعد مسحها آخر دموع ليلتها وعاهدت الله بما أقسمت عليه، بأن تكون ليلتها هذه آخر دموعها حتى موتها!

فمن عظم ما رأت وقاست أدركت أن المصائب قدر محتم في حياة الإنسان، وأن وعاء البلاء والابتلاء لا ينضب، وأن الأحزان لن تعيد لها ما كان وما فقد، وليس من آمال تبني لها شيئا مما زال وتبدد، فيجب أن تعيش حقائق زمانها بكل تغيراته وأن توجه كل طاقة فيها وفسحة في تبقت من عمرها من أجل هدف حقيقي وهو حقا بين يديها، فحياتها سبق وكانت مرهونة برجل ومجتمع وبجماعات وبأهل البلدة والأرض التي يعيشون عليها، وكانت هي حدود الحياة ومجمل دنياها الجليلة، وقد أصبحت فانية وهي جزء من ذلك الفناء، فقد مات ودفن ذاك الرجل مع الجميع ولم يتبقى منهم إلا أرض البلدة وهي مقبرتهم الكبيرة، ولكن هناك بقية منهم وهي ما تزال تعيش عليها وأمام عينيها، وعليها تحيا من أجل بقاء تلك النطفة وهي بقيتهم، فهو الوريث الذي ستهبه كامل حدود الأرض في بقية حياتها كاملة ليتجسد فيها ملكا عنهم، وهو هذا الصبي الصغير المسمى (سِجا)!

فهذا المخلوق الضئيل الناحل وبعد سنوات قليلة ستجده واقفا معها وبجانبها، يتحدث إليها بنسخته المصغرة عن أبيه وعنهم جميعهم وبسيماهم لتسترجع به الأرض تفاصيل الحياة السابقة وما أينع فوقها، وستعود يوما كما كانت ولن تضل طريق عودتها أملا صادقا متى شاء الله لها العودة.

فقررت هذا مع انفلاق ضوء الفجر ليطفئ ظلمة ليلتها وستبدأ فيه كأول يوم في الإعداد للعمل، ليكون في منتهاه هذا الطفل كأبيه الشجاع، وفي صورة رجال البلدة الذين بنوا جدرانها وحرثوا أرضها وغرسوا نخلها وزرعوا قمحها! ثم عاشوا بخيراتهم قرونا سعيدة على ظهرها، هي لا تريده أن يكون سندا لها في الحياة فقط بل عنوانا واسما حيا للأرض وأهلها. سيكون هو بذرتهم الجديدة فيها، وسينمو عليها وينتشر الخير، لأن الأرض ستسقيه عظمة الأجداد في ماضيها وستسري في دمه كل قوة وبسالة وفي قطرات عرق سالت عليها وارتوت بها في بحثها عن حقها في الحياة والمجد وبالكرامة.

ستنمو البذرة على الأرض وتنتشر وتتفرع وتغدو فردوس بعد أن أباد الحقد بجحيم الحرب كل أخضر وكل لون مشرق عليها، ورأت أنها لن تنضج وتورق وتثمر إلا متى أخذت حقها بالعناية الكاملة وترتوي من كل الموروث وبالمعرفة، وسيتشبع من هذه الأرض بحميد الأخلاق وبصفات الرجولة الحقة ومبادئها وحتى يظل قادرا على الاستمرار بالنمو وبوقاية نفسه في كل الأجواء ومهما ساءت الظروف، وفي قرارها كان أن عليها ومنذ هذا الصباح أن تسقيه أولى جرعات "الفطنة"! ليتشرب بها "الحكمة" وبينها ما يواري ندوب الجراح التي تخلفت فيها عن ماضي البلدة المرير، وظلت ليلتها تنزف حتى الفجر وأخمدتها أخيرا لتكون قادرة على تقوية روح الطفل بالصلابة ليتحمل أثقال الحياة فلا تفت له عزم ولا ينكسر له قوام أو ينثني، وأن يصمد دوما بثبات عن السقوط

وأن يقف قفزا كلما كبا ويكون في رأسه وما يستوجب وضع تاج الحكمة والعظمة بصنيع الحلم والرحمة النابعة من عِظم القوة.

فلن تلتفت إلى الحياة من حولها، فحياتها والحياة بكليتها لم تعد تعني لها شيئا بلا أشخاصها ورموزها ومعالمها الحقيقية، وهي الفانية التي لم يتبقى منها إلا تلك البذرة الصغيرة التي ستغرسها في هذا الفجر وترويها وترعاها كأول نبتة تنمو بها متماسكة مع ما حولها من أشجار لتحول أرض المقابر الى فردوس يضج بحياة سعيدة"

وظهرت لسجا في هذا الفجر وعلى غير عادة أيضا ابتسامتها أكثر إشراقا مما سبق من شموس الصباح، فتعلم منذ ساعة بالملاحظة درسا هاما وهو عن أهمية دفن الأحزان سريعا كسرعة دفن الأموات.

وأن العواصف الهوجاء كالأحزان ننحني احتراما لجبروتها ودون انبطاح أو نوم لأنها لا تدوم، وعرف أنه يجب استنباط الحق والحقيقة والحكمة من تجربة واختبار الواقع بالعقل بذكاء، ولم تعد بعد اليوم بحاجة لأن تعوده على الوعظ والسرد والمج بالكلمات ليرددها ببلاهة، لأنها جوفاء لذلك تكون طنانة أو رنانة فقط ويذهب أثرها بعد الصمت وذهاب الصوت مع الهواء.

فما أن رآها ابنها مبتسمة ذلك الصباح حتى اختفت من على وجهه نظرات الحزن والخوف التي تتجسد له كل يوم بالهول وبمرارة كل الأمس، والتساؤل المحموم عن مجهول اليوم والغد، فالأحزان والهموم ظلت مقروءة عن ظهر قلب حتى البارحة لأنها مطبوعة دوما على وجه أمه، وهذا الصباح كان حقا جديدا.

حمل الابتسامة الجديدة المشرقة، وفيها الوعد بالحياة الجديدة يشع من عينيها من جديد، فأحس أن كل الأحزان لا تدوم، بل يجب ألا تدوم طويلا! وبالفطنة تقتنص الحكمة، وهي أول أسس الرجولة الفذة.

وأخذت الأم تلاطف ابنها بقلب خليّ لأول مرة بعد أن أكلا ما تيسر من الطعام بطعم جديد، وأحسّا بمتعته مثل يومهم الجديد هذا، فقالت له مبتهجة:

- سجا! يا سعد أيامي! أن "الشيخ عبد المعين" سيفتتح بيته ليعلم الصغار القراءة والكتابة وأشياء كثيرة!

رأت السعادة تطفو مع ذهوله والاستغراب، فتكمل:

- وهو ليس له أولاد ذكور وستكون لديه كأحد أولاده، وسآخذك إليه كل صباح وأنا في طريقي إلى السوق، إن كنت ترغب؟

وتضيف في سعادة:

- لأني سأعود لبيع ما كنت أبيعه من قبل من بضائع
وقبل أن تنفذ منحة المحارب الشهم.

أبتهج سجا بما سمع، وقفز يقبل رأس أمه، فهي تجربة لحياة جديدة سيعرف بها أناس وأشياء جديدة غير جدران الدار، فهو لم يبتعد عنها وعن أبيه وأمه طوال الأيام الماضية سوى أمتار قليلة.

في اليوم التالي ذهبت به الى بيت الشيخ، الذي أعجب بالطفل ووجد فيه من الذكاء ما سيسهل أمر تعليمه، بل أصبح يعتمد عليه لاحقا كمساعد في تلقين بقية الأولاد.

وقبل إتمام الشهرين اتخذت أم سجا قرارا آخر، وكان خطيرا، ولكنها عانت كثيرا من الدوافع وفي إقناع نفسها قبل أن تحسم الأمر على تنفيذه، فقالت له ذات مساء في حديثٍ قبل أن يناما:

– يا ولدي سجا! كان أوصاني أباك بأنه يريدك أن
تكون رجلا قويا مثله، وشجاعا، وهذا لن يكون إلا
إذا تعلمت أسرار الحياة!

وزادت وهي تهز رأسها ببطء وعلى ملامحها ما يحمل التنبيه مع الترغيب والحث:

وهذا يصعب تحقيقه إلا إذا صاحبت أهل الخبرة بها من الرجال!

فهل تريد أن تكون ذلك الرجل وتسعده؟

فأجابها بحماس وتلهف:

نعم يا أماه! ولكن كيف؟

فرحت لاستجابته السريعة وبحماسه:

الأمر سهل جدا! وكما ابتدأ أبوك!

حين شارك وهو في سنك الحطابة أولا، فهل تحب
أن ترافق جماعة الحطابين؟

ابتسمت وهي تتفرس فيه التحفز وجسمه الصغير يتقمص ما يراه مظهرا للشجاعة:

أستطيع أن أتوسط لك في الأمر مع العم ابن ثابت
الحطاب؟

فالرجل صديق مخلص لأبيك، وكان يحبه كثيرا
وأظنه سيتقبل هذا وفاءا للصداقة وسيسعد بك أيضا

وفي يوم آخر بشرته بموافقة ابن ثابت ورفاقه، وقالت مداعبة:

يا رجل! ستذهب معهم لأسبوع وتعود بشوارب
أكبر منهم.

ضحكا في هذا اليوم ومن خلال الحديث كانت توجهه وتعلمه ما يجب وما لا يجب فعله في مثل هذه الإسفار، وكيف يكسب احترام ومحبة الرجال والرفقاء.

أما أبن ثابت فهو الوحيد من رجال البلدة الأصليين والقلة الذين تعرفهم أم سجا، وكبائع مثلها في السوق، وتثق به كثيرا وبأن تأمنه على ابنها للاحتطاب خارج الأسوار والاستفادة من خبرته في تنشئة الولد، وكان رفض ابن ثابت في البداية ولم يوافق إلا بعد أن أطلعته على سرها المؤلم ودوافعها المخلصة وأقسمت عليه بمساعدتها.

ولا يلام ابن ثابت على رفضه المتعقل حيث صغر سن الطفل أول مانع لأي حطاب بأن يجازف بأخذ من في هذا العمر وفي مهمة فيها من المشقات ما يفت من عزيمة بعض الرجال الأشداء، إذ تبدأ بقطعهم المسافات الطويلة في الصحراء ثم في الصعود في الجبال الشاهقة والخطرة إلى جانب المشقات الخاصة بعملهم في البحث والقطع وجمع الحطب، مع الأخطار الكامنة في الأحراش وصعوبات الصخور ومخاطر مواجهة السباع والهوام، والتعرض للأجواء السيئة في الشتاء والصيف وهي قاسية جدا، وهم مضطرون للمبيت في العراء ولأكثر من ليلة قبل أن يعودوا للبلدة حاملين نتاج معاناتهم على ظهورهم وعلى الحمير بما استطاعوا جمعه من الحطب، وبالرغم من كل هذا وذاك اتخذت أم سجا هذا القرار الغريب والقاسي إن لم يكن عليها فعلى طفلها الوحيد والصغير الضعيف البنية!

والرجل الفاضل والمخلص وافقها على مشاركتها الذنب والحقيقة لم يكن ليقبل لولا معرفته "بالسر الخطير" من وراء طلبها.

دأبت المرأة تعدّ متطلبات رحلته رغم صعوبة توفيرها، فتجهز له كيسا من القماش يعلقه عل كتفه وتضع فيه صرة صغيرة من التمر وشكوة صغيرة من

الحليب أو اللبن الرائب إن وجدت منه شيئا وألا فالماء هو الرفيق المخلص، وأحيانا تزودها بشيء من الأقط أو ببعض أعواد من سنابل القمح الخضراء في مواسمه ليشويها على النار.

وتفعل كل هذا قبل كل رحيل للحطب أو رحلات الصيد وأحيانا لجمع كمأة الأرض أو للإحاطة بمكامن الجراد والإيقاع بها، والعجيب أنها تجهزه ونفعل كل شيء وهي مبتسمة وترى تكاد تطير من الفرح، ولكن هذا في الظاهر أما في حقيقتها العميقة التي لا يمكن حتى الشعور بها أنها تصارع تعذيب نفسها وتأنيبها وتواجه هذا باستماته كي تكبح جموح أعماقها الرافضة لقرارها كما تكافح بقسوة لطرد أي بادرة للعواطف والهواجس المتخاذلة التي تدفعها للتراجع، ولديها من تلك القوى الكثير وربما أشدها تأثيرا حبها الجارف لابنها الوحيد.

ولكن! هناك سر غامض يقوي عزيمتها ويميت غيرها

من المشاعر المعارضة، حتى حين تتزاحم في قلبها عواطف الأمومة والحب والحنان لتثنيها وتحثها أن تبقى فلذة كبدها في أحضانها الى آخر لحظة في حياتها القصيرة، فهي تتوارى مع كل القناعات والضغوط الناجحة مع بزوغ فجر كل يوم جديد وتقوم بواجبات رحلته الجديدة الشاقة للعمل وتجد نفسها– بلا وعي– تقف ممسكة بيده الصغيرة على باب الدار ليأخذه الرحالة عند مرورهم، وتودعه بوصايا الشجاعة مظهرة ابتسامة زائفة بالفرح والسرور بما يقوم به، متحدية بهذا دواخلها التي تنزف دامية مع آخر لمسة بنان، وتكاد تصرخ بأعلى الصوت:

– لا تذهب! أرجوك! ابق يا فلذة قلبي

ملتصقا بصدري!

وتود لو تفتديه بحياتها وأن تعود به للدار وتظل تحتضنه على صدرها حتى تلفظ آخر أنفاسها، وألا تجعله يقاسي مشقة ثوان يوم كهذا، والأعجب!

بعد أن تطلقه يداها يلاحقه قلبها وتظل تركض وراءهم قدماها خفية وعن بعد ولمسافات طويلة، تكون قد خارت كل قواها وأهلكها طول الركض، فتعود مع ارتفاع شمس الضحى تجر أذيالها متمنية أن تترك لدموعها الفرصة لتجرف باللوم والتقريع ما خلفته قسوة قلبها على هذا الطفل الضعيف البريء! ولكنها تصابر نفسها وهي أكثر حذرا ألا تخون عهودها مع الله بانفلات دمعة مخادعة تسقط منها على غرة.

لم تكن تأبه لما سيناله من عطاء أو ما يقتسمه مع الحطابة، بل هدفها أن تعطي لغرستها الفرصة لتنمو وتترعرع برعاية صعاب أرضه، فيكتسب منها القوة والمقدرة في تحملها والتغلب على كل قسوة فيها، مع ما سيكتنز من المفاهيم والمعارف ممن سبقوه بالعيش عليها.

فهي وطفلها أصبحا اليوم يتيمين في الحياة، بعد فناء جميع أهلهم واختفاء وتشتت كل معارفهم، وستكابد حتى تجهزه قبل أن يكون في أيام وهي قريبة أكثر يتمًا! برحيلها الوشيك عنه.

كم كانت سعادتها لا تتسع لها مساحة دنياها التي تحيط بها حين أخذت تسمع ممن يرافقهم طفلها سجا عبارات عن بالغ سعادتهم به وبرفقته التي لا تُمل، وتتحدث عن نشاطه وإعجابهم بذكائه واعتمادهم أحيانا على نباهته وبعض آرائه إضافة لحسن تأدبه وأخلاقه، حتى أن من كان فد عارض أو تخوف من ذهابه معهم وآخرون غيرهم أصبحوا لاحقا يسعون إلى أم سجا طالبين منها السماح بصحبة الصغير لهم في مهماتهم.

والمعتاد في مثل هذه الرحلات انه حين يقبل الغروب على الجماعة من الرجال وبعد انقضاء نهار طويل من العمل الشاق حتى تبدأ أنفسهم بطلب الراحة وتتوق لمتعة نهاية ذلك اليوم، ولنسيان ما مرّ بهم من الإرهاق والتعب، وعند انتهاء التجهيزات المطلوبة للمبيت يتحلقون حول النـار بالغناء أثناء قيامهم بالخبز وبالشواء أو طبخ ما لديهم مع ما أدركوه من صيد أو ما حملوه من سنابل قمح، ولديهم من الخبرة الكثير من الوسائل والحيلة ليصطادوا ما جاز لهم أكله أو اعتادوا على أكله مما يدب أو يندس في الأرض كالأرانب والجرابيع والضبان والجراد وغيرها، وأصبح الصغير يجد بينهم الكثير من المتعة ونجابة في التفكر والمعرفة من خلال ما يتحدثون به ويروونه من أخبار وحكايات، وغالبا ما تدور عن الأخلاق الحميدة وأعمال الشجاعة! وبحكايات عن الكرم وواجبات الضيافة، وعن أساليب الشجاعة ومشاهيرها من أهل البلدة السابقين، وفي الصفات الحسنة في العدل وحسن المعاملة والكياسة والمقدرة على التصرف في المواقف، وكانت هذه المعارف تغذي عقله وروحه وتبني في نفسه أسس الرجولة، فأذناه وذهنه على الدوام في يقظة، وبالأخص على ما قد يتهامس به البعض في خوف عن مصير أو شجاعة أهل البلدة، وعن أمور القهر والظلم والمظالم التي تقع على البلـدة وبعض أهلها، والمخاوف والمعاناة في أنفسهم وعلى أملاكهم وأعراضهم، وحينها يكون صامتا ولا يعلق على شيء مما يسمع.

أما في جانب آخر من مثل هذه الأيام فهو حول المعاناة اليومية والخفية عن العالمين للأم أم سجا!

فهي تظل تعيش ككل يوم سابق من آخر نهار حتى آخر نهار يوم تال، تعيش هياما تظل فيه عيناها كالمهووسة أو الممسوسة بينما تنبش بهما آفاق البلدة منذ كل صباح ولا يستقر لها جنان حتى يلوح سوادهم بعد أيام من البعيد!

فتنطلق نحوهم تنهب الأرض بقدميها حتى تصبح بينهم، فتضمه بقوة الى صدرها ثم تحدق طويلا في أعماق عينيه مبتسمة، وقد قرأت فيهما سعادته بأيامه تلك، وتجد أعظم سرورها عند بلوغ البلدة وهي تسمع ما يدور بينهم من حديث حتى يودع ابنها رفاق الرحلة مظهرا أسلوبه في الحركة والألفاظ كرجل كبير ومهم وهم يودعونه بكل الحب وبالدعوات!

وبمغادرتهم تلتفت نحوه وتجلس أمامه على ركبتيها ويداها على كتفيه، ومرة أخرى تنظر الى عينيه ووجهه ثم كل طرف من قامته الصغيرة وتعود تبتسم وهي ترى سعادته الحقيقية برؤيتها وشوقه إليها، فيعودان إلى الدار بخطوات محلقة في رقصات طيور بالسعادة على شاطئ وديع بينما تحيط بهما سحب من البهجة البراقة وهما يرفرفان بأجنحة الرضا والسلام.

كانت مرت ثلاث سنوات حتى الآن على أحداث البلدة الدامية، وقد تكون خلالها "أم سجا" والظروف قد غذّت روح ابنها وعقله بأكثر مما يبدو أنها غذت جسمه، وهذا لم يكن تقتيرا أو توفيرا رغم أن البلدة أصبحت ملاذا للهو المريع والفقر والجوع، حتى أن الوباء سكنها وأتخذ منها دارا يقيم فيها أفراحه، والأم تكافح بدوافع وأسرار ما تزال مجهولة في نفسها ولا يعلم بها سوى شخصان مؤتمنان وهما ابن ثابت والشيخ عبد المعين، وتريد أن تسابق الزمن وتصل إلى نتيجة ما تهدف إليه في ابنها وبأسرع وقت، مع أن بركة مال " المحارب الشهم" ما تزال تضخ لها في التجارة رزقا كريما.

هي لم تكن لتهتم كثيرا بمن رماها بالحمق لإرسالها الطفل إلى الفيافي والجبال، فهي التي تجهد نفسها وتعاني من هذا القرار وتضحي بالكثير، حتى وكأنها توفر في زفير أنفاسها عند وداعه ولقائه لليوم القادم الآخر وكي لا تنهار في مثل تلك اللحظات دفاعاتها قبل الموعد الأفضل، وهناك" السر" الذي يقلقها!

فهي كل ليلة تقع فريسة بين براثنه، وترى فيه ومنه بحق أن النهاية الخطيرة المرتقبة وشيكة، وأن الزمن لن يطول بها حتى ترى ابنها في الصباح أو حتى انتهاء المهمة، لن ينتظر بها العمر حتى اكتمال نمو هذه الغرسة، وهي تؤمن بأنه عند تلك اللحظة لن يكون لها أي سر! والسر الإلهي القادم أكبر، وهو أسرع!

فمنذ مدة اكتشفت "أم سجا" بقعا من الدماء تخرج كثيفة من داخل صدرها، وبعد كل نوبة سعال، والآلام تعتصرها وتتوقد الحمى بعظامها وأطرافها حين تمسي وتظل تجلدها، وهي تجالد كل ليل حتى شروق الشمس، وتستمر البقع في الكبر والآلام في التضاعف لحين يستيقظ ابنها لتدفن كل ذلك بالنظر في عينيه طويلا بلهفة ومتعة، فلا علاج لها سوى النظر إلى وجهه البريء وفي عينيه الحالمتين بعمق بما تحمله من الآمال، فتقفز عندها من الفراش لتعد له الطعام وتعدو هنا وهناك حتى المساء ناسية كل آلامها لحين يخيم الظلام ويضطجعان، وما أن يغمض عينيه لينام حتى تنغلق وتحتجب خلف أجفانه ابواب سعادتها، لتبقى ليلتها تسهر وتصارِع الموت البطيء وتستعجل الصباح ليفتح لها عينه وتستنجد بما فيها من ترياق الشفاء الذي سيمتص الصديد المؤلم ومعه حمى الأورام وما تنفث فيها من أنواع السموم، وتسأل نفسها كل صباح في جزع:

ما بال جسمه الصغير لا ينمو بسرعة عقلة وكحجم الوعي بقلبه؟

ولكن عزاءها أن جسمه الصغير يحمل بالفعل عقل وروح الرجل الكبير.

وفي ليلتها البارحة هذه كانت تستعجل الفجر من شدة عنائها وازدياد وطأة المرض ولتوقظ ابنها كالمعتاد لتزوده هي هذه المرة بما جهزت له مما يحتاجه ليشارك الحطّابة في المهمة الجديدة، ومن المعتاد أن يكون جاهزا على الطريق

في انتظار مرورهم كلما عزم على الخروج معهم، وبهذه الطريقة يعرفون إنه سيشاركهم الرحلة، واذا لم يجدوه فيواصلون السير دون توقف تحسبا أن يكون عدل عن رأيه لأي سبب، فهذه هي علامات الاتفاق التي تسري دوما على كل من يرغب بالمشاركة من أهل البلدة، فيجب عليه أن يكون جاهزا على الطريق عند مرور الجمع.

وتنبه سجا قبل الفجر أكثر من مرة، ورأى أمه ما زالت نائمة، فيتأفف من طول ليل الشتاء ويتكوم في دثاره من البرد يداعب النوم، وأخرج رأسه في أحد المرات ليرى ذلك الخيط الذهبي اللامع الذي يشق فضاء ظلام الغرفة من ثقب في جدارها المبني بالطين اللبن. فقفز من فراشه مذعورا!

فذلك يعني أن الشمس قد قطعت شوطا في السماء ومن النهار، وأن ركب الحطّابة لاشك قد وصل منتصف الطريق، فهرع إلى باب الغرفة ليتأكد من أنه كان يحلم، ولكنه وجد أن الشمس قد اعتلت سلّم الضحى فرجع الى أمه منكسر الخاطر لضياع الرحلة، وراح يوقظها بصوت حزين:

- أماه! استيقظي! لقد رحلت قافلة الجماعة.

عجب من أمر أمه! فهي وأن تمكنت من النوم فإنها سريعة التيقظ والانتباه ولأبسط حركة! لذا شك بأنها ربما تدعي النوم:

أماه! كفاك تلاعبا، فقد نجحت خطتك ورحل

الركب! فهيا بنا!

هيا! سأصحبك اليوم الى عملك في السوق، قبل

الذهاب لكُتّاب والدي الشيخ عبد المعين ..

فأجابه صمت الفراش والدار!

وعاد يهزها من جديد مداعبا، ولكنها لا تتحرك ولا تنطق! فأخذ بيأس يتوسل إليها أن تستيقظ أو تتحدث معه! فلم يرد عليه أيضا سوى صمت الموت.

فكشف عن وجهها ليقبلها فحتما ستستيقظ بقبلته، ولكنه رأى في وجه أمه ما أخافه، فعيناها شاخصتان، وخيط عريض من الدم الأسود سال من فمها في بركة سوداء تجمدت وجفت على وسادتها، وقفز صارخا وأنطلق إلى الشارع مستنجدا بالمارة، ويطرق أي باب، وأي شيء وهو يستغيث:

أسعفوا أمي، أمي تنزف! ستموت ..

لا أريدها أن تموت! انقذوها ..

وما هي إلا دقائق حتى التهمته حشود الناس، وظل يومه يسير في أمواج من نسوة ورجال تتحرك به وأمام ناظريه بسرعة وبطء وكأنهم يقدمون من عالم آخر، وهو في ما يشبه الغيبوبة. لم يتنبه أو يخرج منها إلا عندما أقتحمها صوت يكاد يعرفه وأحبه مخترقا عليه الغيبوبة ويد حنونة تمسح على رأسه:

الحمد لله! هذا ولدي سجا، أهلا بك يا ولدي، تهديك

أمك السلام، وقد أوصتني بك قبل أن تسافر على

عجل لمن يعالجها في البلدة المجاورة، وتطلب منك

أن تبقى عندي في بيتي حتى ترجع إليك ..

وتابع بصوت حنون:

فأنت ولدي منذ الساعة، وحتى تلك الساعة التي

ستأتي فيها أمك لتأخذك الى البيت.

وبالكاد! تنبه تماما لهذا الصوت الوديع المألوف فإذا بوجه الشيخ (عبد المعين) المشرق بابتسامته ونظراته الرقيقة المشفقة دوما تمتص جميع أحزانه وهمومه

وفي لحظات وكالسحر ليشاهده الآخرون بقية النهار بين أحضان الشيخ يبتسم لمداعبته وملاطفته كما لو كان في أحضان أحد أبويه.

ففي هذا اليوم أحتضنه وتكفل به الشيخ "عبد المعين" وكان القرار مسبقا بين الشيخ والأم حين علم بمرضها، وكان الشيخ في يوم وفاتها يسعى لأن يهون على الصبي خبر وفاة أمه بطريقة متدرجة، فقال له بأنهم أخذوا أمه الى من سيعالجها في بلدة بعيدة، وستعود عندما تشفى، ولكن" سجا" هون الأمر عليه في اليوم التالي بأن قال:

أبي الشيخ! أنا أول من علم بموت أمي! وأن أمي الساعة مع أبي بين يدي الله! رحمهما الله! وهم مع جميع أهل البلدة ..

دهش الشيخ! وظل ينظر شاخصا في عيني الطفل وان اكتست مقلتاها بغشاء رقيق من الدموع إلا أن وجهه يبدو هادي القسمات، فطفق يحضنه بقوة الى صدره والأعجب بأن الطفل هو من أخذ يهون على الشيخ الحزن والمصاب في مسح ما يسيل من دمع عن عيون الشيخ، وبعد برهة من الصمت رفع الطفل رأس الشيخ بعفوية ربما للبحث عن ركائز صدق في عيني الشيخ وكان يسند رأسه بكفه وهو جالس على متكأ في المجلس الكبير الذي أصبح خاليا من الجموع وقال للشيخ في تساؤل وبراءة طفولية ولكن أهتز منها كامل بدن الشيخ:

ولكني لا أعرف يا أبي الطريق والمكان كي أذهب إليهم الساعة؟

وكانت هذه المحادثة وهذا الحوار الصادق هي البوابة التي عبر منها الشيخ الى قلب الطفل ليؤسس قواعدا للأيمان العميق بالله وللأمان والطمأنينة ومزارع للثقة ولمعرفه المزيد عن حقيقة الحياة وأسرارها التي كانت غامضة في محتواها وأبعادها بالنسبة إليه.

وعاش "سجا" أيام سنواته التالية في تلك المزارع من المشاعر والحقائق وتربى عليها في بيت الشيخ عبد المعين، كما وجد فيه من شاركه حياة وأحاسيس الطفولة، ففي الدار أيضا هناك طفل؟

إنها "لهود"، ابنة الشيخ الوحيدة وان كانت تصغر عنه بثلاث سنوات. فالشيخ وزوجته "سلمى" لم ينجبا بأمر الله غيرها، ولم يشاء أن يغير هذا القدر وما قضاه الله بأي وسيلة أو بالزواج من أخرى، فشكر الله كثيرا أن أرسل إليه هذا الغلام ليملأ هذا الفراغ في مشاعره وحياته، فأصبح له ابنا، وحظي هذا اليتيم من الشيخ عرفانا بكرم الله على أب وهبه أكثر مما كان سيناله لو كان من صلبه، فكانا كلاهما لكليهما فضلا من الله.

تعلَّم سجا في مدرسة الشيخ الكثير، حتى أصبح هو لديه الأكثر ليعلمه لغيره من أبناء البلدة، الذين سحرهم بتكامل معرفته وذكائه ودماثة أخلاقه، فاتخذوا منه قدوة ثم إماما.

وفي ذلك البيت الصغير وخلال الفترة القصيرة التي عاشها سجا مع تلك الأسرة، فكانت بمثابة الأم المتفانية بالكفاءة والكفاية في تعلم أسس وقواعد هامة وأن يرسم الخطوط لثوابت حياته، مع ما غرس الله فيه من بذور الألمعية في الفهم والفطنة تقوده باستمرار للمراحل الأعلى في أجمل المثاليات، مع الجسارة والقدرة على الاستفادة والإفادة بخبرة فن المشاركة الفاعلة مع الغير مع البذل والمساعدة لهم بسخاء في كل المواقف، وأكتسب من عيشه في هذا البيت بما اكتساه من أبوة الشيخ العالم، مما فيه من الورع والخبرة في استنباط الحكمة والصواب من رجل متمرس، والأهم! أنه رجل أصيل من أهل البلدة!

بمرور السنوات أستطاع الشاب الذكي مع قلة من رجال البلدة الأصليين بحكمه أن يفلت دوما من مجازر ومقاصل الحاكم الجائر وعدوانية المحاربين الغزاة، فقد أوجد حوله هالات من النقاء والصدق والثبات على مثاليات من النزاهة مع مقدرته الفائقة على تبني المواقف السديدة الرؤية للأمان وامتصاص المؤامرات والمكائد بالمرونة وتلافي الترهات الغير مجدية لتجنب الوقوع في المخاطر والشبهات، وعمل على إبعادها أيضا عن من يتصل به من أهل البلدة الأصليين وغيرهم من الكارهين للظلم كصاحب علم وداعية متفرغ للدين.

وأجاد بقوة التحمل والصبر قدراته على التعايش مع كل الظروف الخطرة والنأي بنفسه عن الشكوك والرقباء بعدم التورط المكشوف وفي استباق كل مسألة بالدراسة ووضع الحلول لكل الاحتمالات ومجابهة المكائد وجعلها دوما لصالحه فكسب ثقة الحاكم وأتباعه.

أصبح الطفل مع الأيام شابا، ورجلا مؤهلا، وممتلئا بالجدارة ليكون مساعدا نابغا للشيخ في مجال التعليم، وفي حب التعلم الدائم الذي ظفر منه بالتفرد في تشرب روح وفن القيادة، وأكتسب بهذا الصداقات والمحبة من الكثير من طلاب العلم وعامة الناس، وبخبرات الشيخ تمكن دون أن يلفت الأنظار من غربلة العديد من تلك العلاقات مع الجميع ليستخلص ولاء صفوة قليلة من الشباب المخلص والموثوق، في فئات متنوعة في قضية خطرة، تهمهم كأبناء البلدة الأصليين وهم ورثوا المسئولية الكبرى لاستعادتها من مغتصبيها، ولا يعني ذلك سوى الثأر الحقيقي لمن امتلأت أرض البلدة بقبورهم، وممن ملأها!

بايعوه بأرواحهم حين وجدوا فيه وفي الهدف ما يستحق هذا البذل، وكان أمينا وصادقا وقوي الإرادة وبارع الموهبة في القيادة، لتولي زمام قيادة أرواحهم إلى الهدف، وبنفس الحكمة التي مكنته من أن يبدع في إبعاد المخاطر والشكوك

والتي تربى عليها على يد الشيخ عبد المعين، وفي تولى مسئولية زرع وإنماء ورعاية الثمرات من البراعم الجيدة الجديدة في الشجرة الأصيلة! ومستبعدا بذكاء وبعد نظر ضعفاء الإرادة والنفس والتخلص السريع الآمن من الوشاة والمحتالين، وتحاشي لدغات العقارب الساكنة وأهل النميمة حتى يتحقق لهم الحلم بطرد المحتلين واسترجاع الحقوق المسلوبة في الأرض وفي الحياة.

ومع مضي الأيام تجرأ وفي سرية تامة من في الشتات والهرب للتحرك والاقتراب خفية وبحذر من مشارف وطنهم، وكانت سمعته والرسائل الخفيّة وراء كل ذلك، وتعسكر الغالبية حول السور متنكرين في مجموعات فقيرة وجائعة من قبائل متفرقة طامعة بعطايا الحاكم الجديد ورجاله الأغنياء، وجماعات أخرى من ممتهني الشعر والغناء والرقص أو ممتهني التجارة، وأقاموا بتدرج في الخيام حول أسوار البلدة، ودخلها منهم أفراد هامة كثيرة بوسائل شتى مدبرة ومحكمة السرية.

وبالتكتم الشديد اختفوا في البيوت والمقابر المهجورة، وكان يحدث هذا مع الأيام في سطوة من الغفلة والغرور للقوات المحتلة وقاداتها، وبانتشار الفساد فيهم والانحلال للأخلاق كوباء في كل شيء.

لم تشم السلطة ورجالها أي شيء من هذه النوايا، فلم يعرف عنها شيء وتضرَب حركتهم في المهد، وزادت أخبار وشائعات بظهور واستفزاز العفاريت والجان التي تسكن البيوت والمقابر، وتلك بتخطيط وتدبير مدروس لتستمر سياسة الحاكم "بالرقص فوق القبور" لاستثمارها في تسهيل دخول أعداد كبيره من عناصر التحرير وتمركزهم وتحركهم في كل مكان للاستعداد للضربات الحاسمة بعد التأكد من تحطم معنويات محاربي الحاكم واستشراء الفساد فيهم

وفقدان مقومات وأدوات صمودهم، فزاد الطلب على الإكثار من حفلات الترفيه والرقص وطلب المزيد من الراقصين.

كانت سنوات ثقيلة من العمل الصامت والتخطيط والاستعداد كفيلة بأن تجعل القائد "سجا" ينجح بدهاء من حجب أعين السلطة الغازية حتى ضربوا ضربتهم المفاجئة والقوية من الداخل والخارج بينما الرقص في الساحات والدواوين مشتعلة بتوافد الكثير من الراقصين أو من تستروا بأزياء وأقنعة الراقصين!

وغسل الثائرون أرض البلدة المدنسة بدماء الغزاة القتلة ثأرا، وتراكضت فلولهم الى البوابات تنشد النجاة للعودة من حيث أتوا، ووجدوا خارج الأسوار وعلى البوابات من كمن لهم في الظلمة واستقبلتهم سيوف وحراب المترصدين وابتلعت القية ممن ظن النجاة براثن وأفواه الصحاري الجائعة.

*****

أعلن في البلدة في أيام تالية أفراح حقيقية جديدة، تراقص فيها الراقصون بجنون ولكن ليس لطرد أرواح الموتى والأشباح من قتلى البلدة بل رقصت فيه أرواحهم ابتهاجا بانتصار الأبناء والأحفاد.

لا شك بأن رفات وأشباح من قتلوا تراقصوا في الخفاء فرحا مع أبنائهم فخرا بهم لأخذهم الثأر لدمائهم المسفوكة عدوانا وبغيا، واستعادتهم الأرض المسلوبة وتربتها المختلطة بعظام الأجداد، مؤكدين مصداقية إرثها الأبدي لمن بعدهم من الأجيال، ولتزرع الأرض ومن جديد بالحب وبالولاء والوفاء وأن يحذروا الغفلة وغفلة الغرور! وبالوعي والجهد ستغدو البلدة مع الأيام كقطعة من "الفردوس على ما كان أرض القبور".

*****

نبذة عن المؤلف

محمد ساهي آل عبدالله

السعودية _ مكة

_مدرس ومترجم بعدة وزارات سعودية

أعمال تحت الطبع:

_ أغاني عاشق ليالي القمر

_نزيف ليالي القمر

_ عزيف ليالي القمر

اعمال سابقة:

نهاية المتآمر الفرخعون – دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني

بيت الطين_ دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني

الفهرست

Contents

بداية الحكايات..

أسطورة السور الطائف......................................

حكايات بلاد السور ....

لعنة السور الطائف..

حكاية الذيب شباب ....

رؤيا الخفاش المارد ....

أهل البوابة الشرقية..

الرقص فوق القبور ....

فردوس فوق القبور..

نبذة عن المؤلف ....

الفهرست ....